رواية
عبد الرحمن خضاري
ريحان
كيان
صفحة كتب
facebook.com/the.boooks

صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

ريحـــان

رواية

facebook.com/the.Boooks

اسم الكتاب: ريحان

تأليف: عبد الرحمن خضارى

تصحيح لغوى وتحرير : حسام مصطفى

رقم الإيداع: 3102\40412

الترقيم الدولي: 9-84-6736-779-879

* * *

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعِ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من المؤلف؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو أم المصريين – الهرم

facebook.com/the.Boooks

ريحـــان

عبد الرحمن خضارى

رواية

facebook.com/the.Boooks

اشتقتُ إليك فعلّمني ألا أشتاق

علّمني كيف أقصّ جذورّ هواك من الأعماق

علّمني كيف تموتُ الدمعةُ في الأحداق

علّمني كيف يموتُ القلبُ وتنتحرُ الأشواق

نزار قبانى

facebook.com/the.Boooks

-1-

قالوا غارق فى أحلام المراهقة....

قالوا أوهام حب الماضى.....

هذا ما قالوه...

ولم يدركوا فداحة خطأهم إلا متأخراً.

***

facebook.com/the.Boooks

خواء، هذا ما يسيطر على ذهني حاليًا، فراغ قاتل، لا صوت، لا حركة..حتّى طنين الصمت التقليدي غائب، فقط، لا شيء.

أنتبه على صوت طرقات ابنتي على باب الغرفة المُغلق، أسألها بصوت أجش مبحوح عما تريد...فتردّ برفق، طالبة منّي الاستعداد لصلاة الجنازة.

- أنا جاهز ... اذهبوا أنتم ..سألحق بكم بعد دقائق.

- علي يأبى الذهاب دونك...سينتظرك بالخارج.

أردّ بالصمت...حتى لساني مقيد بسلاسل ثقيلة ..أشعر بروحي وقد ترسّبت بقاع قدمي تاركة لشيء واحد فقط السيطرة على باقي جسدي..الفراغ!

ببطء أنهض من جلستي المؤلمة على طرف الفراش ..تتلمّس يداي الطريق نحو "الكومودينو" الصغير بجانب الفراش، أبحث عن نظارتي الطبية..نظري لم يعد يسعفني هذه الأيام ... الواقع أن جسدي كله لم يعد يسعفني!

لِمَ لَمْ تنطلقي من معقلك أيتها الروح؟ ماذا تنتظرين؟ لماذا تناضلين للبقاء في عالم بمثل هذا السواد، هذا الألم، هذا الموت؟ لم يعد من سبب للبقاء...صدّقيني!

أتحرّك بخطى أقرب للزحف تجاه باب الغرفة، أفتحه، فأراه جالسًا على مقعد يواجه غرفتي، علي، أكبر أحفادي وأقربهم لقلبي، ينتفض من جلسته، ويتحرّك

facebook.com/the.Boooks

نحوي مهرولا ، يستلم يدي، ينحني عليها ويقبّلها ، أمسّد رأسه برفق، يضع يده أسفل ساعدي، ونتحرّك سويًا تجاه المسجد.

***

facebook.com/the.Boooks

خطوة بخطوة نتحرّك، ذكريات عمر طويل تتسرّب من أعماق الذاكرة إلى أصابع قدمي، فأسفلت الطريق، مع كل لحظة تقرّبني من المسجد.

كلمات، همسات، حركات، سكنات مبعثرة كلها بعرض الطريق.

تصدم أذني بعنف كلماتُ النعي المبثوثة عبر ميكروفون صغير، معلّق أعلى سيارة تجوب البلدة كلها، لتُعلم أهلها بالخبر.

أنظر إلى حفيدي، يلمع وجهه بدموع تنحدر في صمت من عينيه، تلك العينان، عيناها.

نصل المسجد، ندلف لجو الصمت الداخلي المشحون بخليط من الأسى والإشفاق على العجوز الذي يحمل فوق كاهليه أطنانًا من الحزن.

يهبّ مقيم الشعائر واقفًا حين يراني، ويشدّ على يدي معزّيا ومتمتمًا بعبارات خافتة مبهمة، ثم يتجه للميكروفون المنصوب أمام المحراب ويقيم الصلاة.

يصطف الناس، تاركين لي مكانًا شاغرًا في الصف الأول ..يصحبني على لهذا المكان، ثم ينفلت مختفياً بين الصفوف، يكبّر الإمام للصلاة.

تبدأ الصلاة...تنتهي الصلاة.

***

facebook.com/the.Boooks

قال جدي:

"يجب عليك أن تنتبه وتركز في أثناء تأديتك لصلاتك، لاحظت أنك تشرد كثيرًا وهذا خطأ".

***

facebook.com/the.Boooks

يعلن مقيم الشعائر الصلاة على الميت، يتقدّم النعش متّكئًا على أكتاف أربعة من الرجال، يتقدّمهم ابني، تتعالى همهمات التوحيد من الرجال، بينما يضعونه برفق أمام المحراب، ويتقهقرون سريعًا للصفوف الخلفية.

يشير الإمام بيده لي كي أتقدّم، لأؤمهم في الصلاة ..بمفاصل واهنة وأرجل مرتعشة، أتقدّم، أقف بصمت أمام الكيان الهامد المهيب الراقد أمامي، أحدّق فيه بذهول، شاعرًا بتنميلٍ في أطرافي، هذا الكيان كان محور حياتي الأساسي، قبلتي التي طفتُ حولها عمري بأسره.

أرفع يديّ مكبّرًا بصوت مرتعش:

- الله أكبر.

- رحلتِ يا خائنة العهد!

- الله أكبر.

- ألم نتفق على أن أرحل أنا أولًا؟

- الله أكبر.

- فأين أجد عطرك الآن؟

- الله أكبر.

- رحلتِ قبل أن أذكّركِ بأني ...

facebook.com/the.Boooks

- أحبّك.

***

facebook.com/the.Boooks

اندفع النعش خارجًا من المسجد، سابحًا فوق تيّار متغير من أكتاف الرجال فى تدفق سريع، تحوطه تكبيراتهم اللاهثة، ونواح النساء المتّشحات بالسواد، في رحلته الأخيرة نحو منطقة المقابر.

فى أوج هذا التدافع خرجنا أنا وعلى من المسجد، كان ارتعاش ساقي قد بلغ مداه، حتى أننى تعثرت أثناء خروجى من المسجد، وكدت أسقط على وجهى.

- لنسرع الخُطى قليلًا يا جدّي حتى نلحق بالنعش قبل الدفن.

- اذهبوا أنتم، سأرتاح قليلًا في المنزل، ثم ألحق بكم في سرادق العزاء.

تمتمت بهذه الجملة، ثم ولّيت وجهي شطر المنزل القريب، وتحرّكت بخطى وئيدة وسط نظرات من المحيطين بى، تمتزج فيها الدهشة ببعض التفهم.

بساقين ليّنتين أصعد سلّم البناية...هل كان على هذه الدرجة من الإظلام من قبل؟! بيد مرتعشة أُخرج المفاتيح من جيبي ..أفتح الباب وأدفعه... هل كان بهذا الثقل من قبل؟! أدخل الشقة شاعرًا بالاختناق...هل كانت بهذا الضيق من قبل؟! أدخل الغرفة...هل كانت مهملة هكذا من قبل؟!

أرقد بجلبابي الأبيض على الفراش الذى ما زال يحمل عطر جسدها...أدسّ أنفي بموضع رأسها من الوسادة، أتشمّمه بقوة، خوفًا من زوال الرائحة، رائحتها المميّزة، رائحة عقود من الحب، رائحة كلّما أظلّ طيفها روحي ذكّرني برائحة أوراق الريحان التي أعشقها، دائمًا ما كان يعجبها هذا التشبيه،

facebook.com/the.Boooks

وتضحك كلما ذكرته أمامها، فينتشي الحب فرحًا بيننا، يرهقني ثقل الذكريات وأنين قلب لم يستوعب الصدمة كاملة بعد، فتنهمر دموعي غزيرة، وأستغرق في النوم، داعيًا الله ألا يوقظني منه...أبدًا.

***

facebook.com/the.Boooks

-كنتُ قد كتبتُ لكِ قصيدة جديدة ...فلمَ رحلتِ قبل أن تسمعينها؟!

ينطلق الصوت الملائكي خافتًا، كما لو كان قادمًا من أعماق بئر سحيقة:

- ليس بيدي يا حبيبي.

- كان بإمكانك الانتظار قليلًا، على الأقل كي أذكّركِ بأني أحبّك..ألم أخبركِ أني سأذكّركِ بهذا كل شهر في نفس الموعد؟

- ولكنني لم أنس أبدًا يا حبيبي، أنت من كنت تصرُ على تلك العادة.

تقترب مني بخطوات واثقة، تمدّ يديها وتحوطني بها، تضمني إلى صدرها، يداعب وجهي شعرها، تتنفس رئتاي عبقها، ثم ...تبدأ في الطَرْق على رأسي بقبضة يدها! طرقات؟! يزداد الطَرق قوة، حتى ينقلب إلى ضجيج، كاحتكاك عجلات القطار بقضبانها، يتسرّب الألم إلى رأسي ببطء،

طَرقات..ألم...انتفاضة عنيفة...ثم..

أفتح عيني المبللتين ..ضباب معتم يعبث أمام عيني، ثم ينجلي عن ظلام خفيف..أحاول استيعاب المشهد...غرفة نومي...فراشي.."كومودينو" صغير...مكتبي تحيط به عن اليمين واليسار خيالات امتدادات مكتبتي العملاقة...جلبابي الأبيض المبتل بعرقي الملتصق بجلدي ...أنفاسي المتثاقلة ...ثم..الطَرقات متزايدة الشدة على باب الحجرة، يليها صوت علي الجزع ..أرد عليه بوهن.. ثم ألملم عظامي المتألّمة وأفارق الفراش.

facebook.com/the.Boooks

أتجه إلى الباب...بعد كل هذا العمر لم أتخلّ عن عادة تحصين الباب وغلقه بالمفتاح عندما أكون وحيدًا ..... أفتحه..يصدمني وجه حفيدي الشاحب الذي تسمّر في مكانه دقيقة كاملة، وهو يتطلّع إليَّ بعينين زائغتين، قبل أن يُلقي بنفسه في حضني قائلًا بعتاب:

-قلقت عليك يا جدّي...لم تذهب للسرادق، وباب غرفتك موصد..أطرق الباب وأنادي عليك فلا ترد... خفت أن ..

يقطع كلامه فجأة، وينظر للأرض، قبل أن يرفع عينيه إليّ مرة أخرى قائلا بتوسل وبصوت يوشك على البكاء:

- أنت تعلم كم أحبك يا جدي، أرجوك لا تقلقني عليك هكذا مرّة أخرى.

ثم يلقي بنفسه بين أحضاني ثانية مكررًا كلمته:

- أرجوك.

أربّت رأسه بحنان، متذكرًا علاقتي بجدّي ...نفس العاطفة بلا شك، عاطفتي الجيّاشة تتحرك في جسد هذا الشاب ذي الأعوام الثمانية عشر...شيء آخر أخذه عنّي.

يتحرّك لساني المتعب مهمهمًا:

- كنت نائماً يا علي ..كم الساعة الآن؟

facebook.com/the.Boooks

- العاشرة مساءً.

أفاجأ بردّه، أُلقي نظرة خاطفة على ساعة الحائط الكبيرة المعلّقة على جدار الصالة، فأتأكّد مما قاله ...هل نمت كل هذا الوقت حقا؟! ليس من عادتي أن تستمر قيلولتي أكثر من ساعتين!

انتبهت لشيء ما فجأة، فالتفت إلى علي، وسألته سؤالا بدت إجابته بديهية لدرجة جعلتني أشعر بالغباء:

- هل انتهى الدفن؟

لاح الاندهاش على وجهه، قبل أن يقول:

- أجل ...منذ زمن ...

سكت قليلًا قبل أن يستطرد:

- وانتهى عزاء اليوم الأول أيضًا.

- هل لاحظ الناس غيابي؟ (سؤال آخر أكثر غباءً من الأول).

- نعم، وسأل عنك كثيرون، منهم أبو ياسر والحاج أحمد.

لأول مرة في حياتي أشعر بهذا القدر العجيب من اللامبالاة!

ألتفت إلى حفيدي سائلًا:

- هل تريد النوم؟

facebook.com/the.Boooks

- كلا، ليس الآن.

- إذن اذهب وحضّر لنا كوبين من الشاي، والحق بي في الشُرفة.

- أمرك.

قالها بابتسامة صغيرة، ثم انصرف.

***

facebook.com/the.Boooks

غالبًا ما تبدو أحداث الماضي البعيد مثالية إلى حد خرافي، يرى الأجداد أن عصورهم كانت أفضل وأغنى، وأن فتيات عصرهم كنّ أجمل، وأن طعام عصرهم كان ألذّ، ويختلف تماما عن طعام هذه الأيام الملوث فاقد القيمة الغذائية!...الى آخر تلك الذكريات.

فهل هي محاولات من العقل لإيهامنا بأننا عشنا أيامًا أجمل وأنظف؟ وهل يتغلب الإنسان بهذه الطريقة على ما يتعرّض له من ضغوط الحياة ومآسيها بصفة مستمرة؟ ربما!

قد تكون محاولات عقلي قد أفلحت، أو ربما كانت بالفعل أيامًا جميلة، لكن هذا غير مهم الآن، المهم أنني أتذكر تلك الأيام باعتبارها الأيام الأكثر مثالية في حياتي.

مشهد يبدو من بعيد رائعًا ...أُسر صغيرة تجتمع مع بعضها في نزهة عائلية أسبوعية بأحد النوادي.

يتحلّق الرجال حول مائدة، والنساء حول أخرى ...مناقشات وآراء كثيرة تُبعثَر على المائدة ...آخر الأخبار...المآزق السياسية ... الترقيات..طبخة جديدة ..أسعار الذهب والعملات...إلخ.

وبعيدًا عن هذا الصراع الكلامي والضحكات المتحمسة... -في عالم وردي

facebook.com/the.Boooks

خاص بهم- يجتمع الأطفال للعب، متفقين على قانون واحد لا خروج عليه، الاستمتاع بلا حدود.

لم أكن أبدًا شخصية انعزالية أو انطوائية، بل على العكس تمامًا، كنت أكثر من يُحدث ضجة لجذب الانتباه، أتكلّم بصوت عالٍ، لديّ ميل فطري للقيادة، يجعلني دائما مسئول تقسيم الفرق في أثناء اللعب.

دائمًا هي في فريقي، أخصّها بالكلام دون غيرها.. أجعلها تأخذ مكاني في اللعب إن خسرت دورها، وخرجَت من الفريق.

كانت مجرد صداقة، أو هذا ما كنت أعتقده، لكنها صداقة أقوى من مثيلاتها..فأساسها قوي، وعمادها الارتياح والاطمئنان المتبادَل، ارتياح الكلمة لدى خروجها من أعماق الروح، واطمئنان الروح وهي تصوغ تلك الكلمة.

اعتدت في تلك الأوقات أن أنفرد بها معظم الوقت، بعيدًا عن الجموع، وأتحدث إليها حديثًا عاديًا تافهًا، كغيره من أحاديث الأطفال، أتعمّد دفعها إضحاكها، ضحكاتها البريئة تلك التي تنعش روحي، ضحكات حقيقية وغير مصطنعة.

كل هذا كان يجعل ابتسامة عريضة تجد طريقها إلى فمي، وتُنحت فيه طوال طريق عودتنا من النادي، وفي أثناء رقادي على فراشي قبيل نومي متطلعًا لسماء الحجرة، ومستعيدًا أحداث اليوم، تظل تلك الابتسامة محفورة بوجهي، حتى اليوم التالي الذي غالبًا ما يكون يوم جمعة.

facebook.com/the.Boooks

ألهذا السبب ارتبط يوم الجمعة عندي بالسرور الداخلي وانشراح النفس، وجلاء القلق عن العقل؟!

ربّما.

***

facebook.com/the.Boooks

في بداية سكني في هذه البناية -بعد زواجي مباشرة - كنت أعشق الوقوف في تلك الشُرفة معها، يحتضن كفّي كفها برقة، يمتد كل إصبع من أصابعي بحثًا عن قرينه الهش الناعم، يتحسّسه، يستكشف حدوده الخارجية..ابتسامات خجول مشبّعة بعبق الحب... قبلات خاطفة تنقل رسائل مقدسة.

وقتها كان بإمكانك أن ترى النيل من بين البنايات القليلة القائمة، إذا سعيتَ ببصرك بينها، أما الآن، وبعد أن تراكمت المباني كقطع الدومينو المبعثرة، أصبحت الرؤية معدومة، مهما حاول نظرك التسلل بحذر بين تلك المباني، فلا بدّ في النهاية أن يصطدم بحائط صلب يعوق تقدّمه!

أنظر أسفل البناية التي أسكنها، حيث المصطبة الخشبية التي وضعتها هناك من زمن بعيد، لأسامر عليها أصدقائي وجيراني في ليالي الصيف الرطبة.

أرى شابًا وفتاة في مقتبل العمر يجلسان عليها، متشابكي الأصابع والأفواه، في قُبلة طويلة تنقل أشواق كل منهما للآخر، غافلين عن الدنيا ومن فيها وما فيها، شاعرين بقليل من الحرية في شارع خاوٍ وشبه مظلم.

في شبابي كنت أثور على مثل هذه التصرفات، معطيًا للساني حرية التصرف، فينطلق ببذخ لاعنًا إياهم وآباءهم ومصير الأخلاق في البلد، فيفرّ

facebook.com/the.Boooks

من الشباب مَن يفرّ، ويقف من يقف ليرد بوقاحة، أما الآن-ولدهشتي الشديدة- وجدتني أراقبهما في صمت وحرص من يريد المتابعة دون أن يزعجهما أو يدفعهما للفرار!

قطع خلوتي دخول حفيدي بصينية فضية عليها كوبا شاي.

وقف صامتًا بجانبي، واضعًا الصينية على سور الشرفة في المسافة الفاصلة بيني وبينه، ثم ألقى نظرة متفحّصة سريعة على الشاب والفتاة المنشغلين بعناقهما أسفل البناية، ليرفع رأسه بعدها بكبرياء ظاهري غير مهتم.

لفت نظري الموقف، وأدركت الرسالة المبهمة المستترة خلف قناع الكبرياء.

- "من هي؟» سألته.

- "هي من؟» ردّ بدهشة.

- الفتاة التي تحبّها.

اتسعت عيناه دهشة واستفسارا عن كيفية معرفتي، ثم ابتسم ابتسامة هادئة وخفض رأسه بوجه محمر ولم يعقّب.

بعد برهة نظر إليّ بتردّد، فتح فمه ثم أغلقه مغالبًا كلمة تحاول القفز خارجه..لكنه لم يلبث أن غلب تردده، وأطلق سراح ما يجول بخاطره، وقال ببطء من يتخيّر كلماته بدقة:

- جدّي، سمعت من أمي قبلا أنك وجدّتي قد تزوّجتما بعد قصة حب، فهل هذا

facebook.com/the.Boooks

صحيح؟

ظهر شبح ابتسامة الذكريات على جانب فمي، ثم لم يلبث أن توارى سريعًا خلف تقلّص وجهي من ألم مباغت لم أعهده من قبل بين ضلوعي..أو عهدته زمنًا ثم نسيته مع غيابه، ألم عنيف شرس يهاجم بدقة من يعرف نقاط ضعف فريسته، ألم الفقدان، ألم الحرمان.

أحاول أن أتغلّب على ألمي، مستعينًا بفضيلة الصبر، أقول دون أن ألتفت إليه:

- أجل يا حبيبي ...أعتقد أيضاً أنه كان نوعا خاصا من الحب.

- وكيف ذلك؟

أحاول أن أشرح له، فلا يستطيع لساني تلخيص واجترار أحداث ربما تمثل حياتي بأكملها، فأقول له محاولًا تبسيط الإجابة:

- سأضرب لك مثالًا.. هناك من يتزوّج فتاة لأنه يحبها..وهناك من يتزوّج فتاة، ثم يحبّها بالتعود... اخلط هذا مع ذاك، تتضح لك علاقتي بجدّتك قبل زواجنا.

تتسع عينا الفتى، ويرتفع حاجباه انبهارًا أو تساؤلًا...لست أدري تحديداً!

أُكمل كلامي قائلًا:

- دائماً ما اعتقدت أن علاقتنا كانت من العلاقات النادرة في مجتمع يستبدل بجوهر الحب الحقيقي، الشهوةَ المغلّفة بحب زائف، يستبدل بالحب المصاحبة،

facebook.com/the.Boooks

خصوصًا في فترات الجامعة، وتدفق طاقات الشباب، ثم يتزوّج الشاب من فتاة أخرى في نهاية المطاف، فتاة لم يحبها ولن يحبها، فقط من أجل قضاء شهوته أو الشعور بالالتزام، ويصبح أمام الزوج بعدها خيار من اثنين، الأول أن يتحمّل صعوبات العلاقة في بدايتها ثم يعتادها تدريجيًا، والثانى –وهو الأسوأ- أن ينقم على حياته ويلعنها عند مواجهة أولى صعوبات الحياة، وتصبح دنياه مشتتة بين الحنين لمن أحبّها سابقًا، حنين يعكّره غضبه عليها، والنقمة على وضعه الحالي مع زوجة لا يحبها، ويفتعل الحجج ليتشاجر معها، وقد ينتهي به الأمر للزواج من أخريات، متورّطا في كابوس العذاب الدائم للبحث عن حب مفقود!

أُنهي كلامي، فيهزّ علي رأسه متفهمًا، وإن بدا عليه الشرود...ذلك الشرود اللعين، لعنتي التي أصابته بالوراثة... يسود الصمت المكان للحظات، قبل أن يقول علي فجأة وبلا مقدمات:

- مريم.

أنظر إليه بتساؤل، فيجيب بقليل من العصبية:

- الفتاة التي أحبّها، اسمها مريم.

أبتسم بهدوء ولا أعلّق.

- جدّي.. هل بإمكاني أن أطلب منك طلبًا ..أعني أنا أعلم أنه صعب جدًا في

facebook.com/the.Boooks

ظل الظروف الحالية..لكن..

تحمرّ أذناه إحمراراً طفيفاً وهو يقول:

- هل من الممكن أن تحكي لي كيف بدأت وتطوّرت علاقتك بجدتي..أعني أنه....أنا فقط أريد الاستفادة من قصتك.

أصمت قليلًا، قبل أن أجيب باقتضاب:

- ليس الآن بالتأكيد، اذهب لتحصل على قليل من النوم الآن...أمامنا غدًا يوم طويل.

يرتبك قليلًا، ويتعثّر في كلماته وهو يعتذر بهمهمة مبهمة، ناظرًا بين قدميه محرجاً، قبل أن ينصرف تاركًا إياي وحيدًا في الشرفة، شاخصًا إلى السماء بعينين غيّمتهما طبقة رقيقة من الدموع تأبى الانحدار!

سامحكِ الله يا حبيبتي، عذّبتِ قلبي وعقلي في حياتك، وتتلذذين الآن بتعذيبهما في مماتك أيضًا!

سامحكِ الله... أستغفر الله العظيم.

***

facebook.com/the.Boooks

-4-

قال جدّي:

"أعلم أنك تحبّها... الحب الطاهر ليس عيبًا يا ولدي.. انتهِ من دراستك بتقدير عالٍ.. وسأزوّجها لك".

***

facebook.com/the.Boooks

- اسمعوا...اسمعوا.

هكذا هتفت فاطمة، وهي تقفز عن مقعدها، وعيناها تلمعان بالحماس.

كنا في لقاء الأسر المعتاد يوم الخميس، وقد أخذنا استراحة من اللعب.

جمعتنا مائدة مستديرة بمقاعد خشبية ذات وسائد إسفنجية مريحة، ثم بدأ بيننا نوع جديد من المنافسة والتحدي، حيث على كلٍ منا أن يذكر موقفا غريبا حدث معه، أو رآه بمدرسته.

استدارت رؤوسنا بآلية نحو فاطمة، التي اتسعت ابتسامتها، فرحة بكونها في بؤرة الاهتمام، قطّبت جبينها متصنّعة الجدّية، ورسمت على وجهها ملامح الخطورة:

- سأحكي لكم عن موقف، أراهن أنكم لم تسمعوا له مثيلًا من قبل في مدارسكم.

تبدّت مظاهر الاهتمام في وجوهنا، بينما جلست هي مرة أخرى، متعمّدة التباطؤ، لتزيد من شغفنا، ثم قالت:

- في مدرستنا ولد وبنت يحبّان بعضهما بعضًا، وقد اعتادا الخروج من الفصل في وقت معين باتفاق مسبق، ليختفيا بعدها ما يقرب من ربع الساعة، ثم يعودان بعدها واحدًا وراء الآخَر بفارق دقائق بين عودة كل منهما، يظنان أن

facebook.com/the.Boooks

لا أحد يعرف سرّهما، لكن الفصل كله يعرف...بل المدرسة كلها!
واليوم تبعتهما لمعرفة ما يفعلان فى ذلك الوقت المسروق الذى يقضيانه بعيداً عن الجموع أثناء اليوم الدراسى، فرأيتهما يدخلان أحد الفصول الخالية، وعندما استرقت النظر داخل الفصل رأيتهما..
ثم شهقت شهقة مفاجئة وهي تستأنف:
- "بيبوسوا بعض".
كنا وقتها خمسة، أنا وهي وخالد وأماني وفاطمة، وما إن شهقت فاطمة بجملتها الأخيرة حتى انفَجَرَت بالضحك الهستيري مع خالد وأماني، كأنّ ما قالته هو أعظم نكات الأرض.
بينما احمرّ وجهها هي، هي التي اعتادت الضحك على كل ما يضحك، وكل ما يشبه ما يضحك، لم تضحك هذه المرة...نظرَتْ بين قدميها في خجل ووجهها محتقن... بينما أراقبها في بلاهة متعجّبًا.
كنا على أعتاب المراهقة في ذلك الوقت، تلك الفترة التي تلاحظ فيها أن مقبض الباب قد أصبح في مستوى صدرك، وتشعر أن أنفاسك قد أصبحت أعنف وأقوى، وبأن طاقة عظمى تجري في عروقك، طاقة تكفيك للسيطرة على العالم بين يوم وليلة، تلك الفترة التي تضيقُ فيها بتحكمات أهلك في تصرفاتك، وتشعر أن الكون كله يحاصرك ويقف ضدك.

facebook.com/the.Boooks

أجل، كل هذا لاحظته وأكثر، ولكنني غفلت عن ملاحظة شيء خطير، أن المقابل لما يحدث لجسدي، كان يسيطر على جسدها!

كصورتين متقابلتين في مرآة .. شرق وغرب..ملك وكتابة.

ذكر..وأنثى.

لم ألحظ أن أفروديت قد حلّت بروحها وجمالها في روح وجسد حبيبتي، فامتزجت الروح بالروح، وصُهرتا سويًا مع الجمال، لتخرج تلك الآية البديعة العبقرية من عتمة بخار التجربة.

راقبت بدقة الشعيرات المنبثقة تدريجيًا أسفل أنفي، وأحصيت عددها متمنيًا المزيد، فرحتُ بتعرّجات صوتي، ومحاولاته لبلوغ الخشونة.

كل هذا، ولم ألحظ أن نبضات الحب العذراء الملتهبة، قد بدأت تسري بقلبي، ثم وفي لحظة إدراك مباغتة، سطعت الحقيقة في ذهني، لم ألحظ أن تطوّر الجسد يؤدي لتطوّر العقل والتفكير، وتطوّر الروح يُظهر ثمار المشاعر!

لذلك، أصبح ما كنا نضحك عليه بالأمس، بابًا نستحي أن نطرقه، وإن تجاسرنا وطرقناه، أَبَى أن ينفتح!

لهذا لم تضحك.

***

facebook.com/the.Boooks

يخترق شعاع الشمس النافذة الوحيدة بغرفتي، ليسقط بثقله على وجهي..أفتحُ عيني بهدوء..صباح جديد، ويوم جديد لي في الحياة..للأسف.

أعتدل في فراشي ببطء، محاولًا استجماع أذكار الصباح في رأسي، طرقات خفيفة على باب الغرفة، يصحبها صوت علي مستأذنًا في الدخول، استيقظ مبكّرًا إذَن.

- تفضل.

يُفتَح الباب، وتطلّ منه رأسه على استحياء، ثم يدخل، يقف عند طرف فراشي وهو يغمغم بشيء من الاعتذار:

- آسف يا جدّي.

- "علام؟" أغمغم مندهشًا.

- على ما طلبته منك بالأمس، لم يكن يصحّ أن أطلب منك حكاية ذكرياتك مع جدّتي، ونحن بعد في فترة الحداد ..لقد كان فقط ..كان فضولًا مني.

أبتسم بشرود، فلم أكن قد أفقت بالكامل بعد.

- اجلس يا علي.

يسحب مقعدًا صغيرًا، ويجلس في مواجهتي.

- ذكرني مجددًا باسم الفتاة التي تحبّها.

facebook.com/the.Boooks

- مريم يا جدي.

- مريم، اسم جميل، بالأمس ذكرتَ لي اسمها فقط، ولم تحدّثني عنها...أخبرني كل شيء عنها.

يبتسم علي ابتسامة واسعة، ويقول بنشوة حقيقية:

- حسناً.

***

facebook.com/the.Boooks

قال علي:

"هي من نفس سني تقريبًا..طالبة بكلية الحقوق، المضحك أنه في أول أيامي بالجامعة كنت أتصوّر أن من سأحبها ستكون غالبًا إحدى زميلاتي، حتى إنني قضيت عدة أيام متفحصًا ملامح كل من تمرّ بي من زميلاتي لأختار من بينهن، لكن هكذا هو الحب، لا يمكنك الإمساك بأطرافه أبدًا..كعصفور سريع عنيد يحدّد حسب رغبته من سيمسك به ومتى!

وهكذا رأيتها ذات يوم، جالسة مع صديقات لها من زميلاتي في الكلية...خطفتْ أنظاري وجعلت أنفاسي اللاهثة تتصارع فيما بينها...وقفت بعيدًا عنها مستمعًا لوجيب قلبي المتزايد ومحملقًا بها... متوسطة الطول...بعيون سوداء واسعة كدوّامات تزداد قوة جذبها كلما أطلتَ التحديق بها.

لا أملك الجرأة الكافية التي تجعلني أقترب منها وأتعرف إليها ..لذا تسمّرتُ مكاني مكتفيًا بالمراقبة، وإن شعرت في لحظات معينة بأنها لمحتني.

تركتها تمضي، فلم يكن في جعبتي ما يمكن عمله..ثم تكررت مرات رؤيتي لها، أو أنا الذي تكرّرت مرّات ملاحظته لها... وفي كل مرة أراها يتعمّق ويتأكد الشك المعلّق بقلبي.

في إحدى المرات، انتهزت فرصة رؤيتها تثرثر مع إحدى زميلاتي، بعد انتهاء

facebook.com/the.Boooks

محاضرة ما، وتوجّهت رأسًا نحوها، بجرأة غريبة عليّ.

طلبت من زميلتي التي تقف معها تدوينها لمحاضرة اليوم، متعللًا بضيا ع كشكول محاضراتي، كنت أكذب بالطبع، ولكني لم أجد حلًا آخر لتفتيت جسر النظرات الممتد بيني وبين مريم، وإنشاء جسر آخر قائم على الكلام، وهكذا وبانشغال صديقتها بالبحث عن كشكول محاضراتها في حقيبتها، تحوّلت دفّة الاهتمام تجاهي.

- أرأيتِ ما يصنع الطب بدارسيه؟

هكذا قلت محاولًا تحريك شهيّتها للكلام.

- كان الله في عونكم.

ترد بشبه ابتسامة.

توقفت حركة الكون لحظة سمعت صوتها .. كنت قد سمعت شبح صوتها عن بُعد من قبل، لكن، عندما طفت كلماتها من فمها موجّهة إلى شخصي، شعرت بارتجافة لحظية غمرت جسدي كله... زميلتي تثرثر بكلمات لا تصلني، أو تصل فلا أستوعبها ...لم أبالِ ...كل ما همني وقتها هو النظر في العينين الدافئتين لمن تقف أمامي!

- علي!

انتفضت لدى سماعي صوت زميلتي شبه الصارم، لم أنتبه إلى أنني قضيت

facebook.com/the.Boooks

ما يقرب من العشرين ثانية محدقًا في مريم دون أن أنطق بكلمة...انتبهت إلى أن وجهها أصبح في لون ثمرة الطماطم الطازجة، وأن عينيها انخفضتا لتستقرا على قدميها، خجلًا وضيقًا من موقفي غير المبرر.

تنحنحتُ معتذرًا ومتعللًا بالشرود المفاجئ الذي يصيبني أحيانًا بلا مقدّمات، ثم التفتُّ إلى زميلتي متناولًا منها كشكول محاضراتها.

حاولت أن أرطّب الأجواء فألقيت دعابة لم تُضحِك أيًا منهما...استدرت متأهّبًا للانصراف، شاعرًا باندفاع الدم إلى أذني من الإحراج، ولكني تذكرت شيئًا جعلني ألتفت إليها مرة أخرى.

- بالمناسبة هل ستذهبان إلى الحفلة المقامة بالجامعة اليوم؟

- "ربما" كانت زميلتي هي من تتولّى الرد الآن.

أتجاهلها وألتفت إلى مريم مرة أخرى كأني أستكمل حوارًا مقطوعًا:

- لأني ضمن برنامج الحفل اليوم...سألقي قصيدة.

لم ترد ولم تبتسم.

- أنا علي بالمناسبة..وأنتِ؟

تردّ بصوت خفيض:

- مريم.

***

facebook.com/the.Boooks

قال جدّي:

"حاول دائمًا ألا تقع في الخطأ، حتى لا تُجبر على الاعتذار...ولكن إن أخطأت...فاعتذر".

***

facebook.com/the.Boooks

يُنهي علي قصته، فيسود صمت قصير، أقطعه قائلًا:

- أصدِقنى القول يا علي ...أتحبها فعلًا؟

يندفع قائلًا:

- أنا أعشقها.

يصمت قليلًا، قبل أن يضيف بصوت منخفض، وكأنه لا يريدني أن أسمع:

- أعتقد هذا.

- تعتقد؟

- المشكلة أني أخطأت في المرة الوحيدة التي تمكنت فيها من التحدث معها، وبهذا أجهضت العلاقة قبل أن تولد أصلًا.

أحاول التخفيف عنه فأقول:

- لا تقلق ...كل شيء يمكن إصلاحه بسهولة.. ألم ترها بعد تلك الحفلة؟

قال بشعور المنهزم:

- كلا ..لم أرها مجدداً ...كانت الحفلة منذ ثلاثة أيام ...أي قبل وفاة جدتي بيومين.

الألم في صدري مجددًا ...مستعمرة من النمل الأبيض تتسلى بحفر جدران قلبي!

لم ينتبه علي لنزيف روحي الداخلي، وواصل كلامه بعصبية:

facebook.com/the.Boooks

- ما كان ينبغي أن أحدّق بها هكذا..لكن الأمر لم يكن بيدي...عيناها...هاتان العينان..كلما تعمّقت في التحديق، أشعر أني أغرق فيهما.

"أغرق فيهما"!

تلك الجملة بعينها.. من أين أتى الفتى بها؟

وكيف؟

***

facebook.com/the.Boooks

في ثقافتنا ووجداننا ، يرتبط مفهوم العيد ببهجة غامضة مفاجئة، أكثر من ارتباطه بمفهوم العطلة، التي قد ينتظرها البعض بشغف يفوق أحيانًا شغفهم بروح العيد نفسه، وذرات بهجته المنتشرة في الأجواء.

تلك الفرحة المبهمة التي تشعر بها لدى اقتراب العيد لا تُنسى، ولا تنقص، أو تتأثّر بمرور الزمن، كبيرا أم صغيرًا ، ستتفتح مسامّك تلقائيا لتندمج مع كيان الروحانية العاصف.

بذرة روح العيد مغروسة بداخل كل منا ..تنبت وتزهر عند سماع تكبيرات العيد، عند تبادل التهاني المشوبة ببقايا نعاس مع كل من تمرّ به في طريقك، عند أخذك للعيدية من والدك، أو منحك العيدية لابنك، تجدها في جلسة عائلية تفيض ودًا ومحبة..تلك هي روح العيد الحقة.

كنت شاردًا مع تلك الخواطر، أسير في شوارعها..مدينتي، تلك المدينة الصغيرة الهادئة التي لم تعد كذلك منذ أشرقت الشمس عليها وهي متزيّنة ومتألّقة، مرتدية ملابس العيد.

وحيدًا ...أشق طريقي وسط الصخب ...أهيم مع أفكاري... أراقب بأعين لا ترى أفواج البشر الذين تقاطروا من كل حدب وصوب للاحتفال بالعيد في المدينة..

أشعر بخطأ تفكيري المتعلق بروح العيد، حين أرى أن فرحة الشباب الطاغية

facebook.com/the.Boooks

تتحور و تنصب من أفواههم على هيئة معاكسات طويلة لكل أنثى تمرّ بجحافلهم المهاجمة للمدينة، وبدلًا من أن تمتد أياديهم بالخير والإحسان، في هذا اليوم العظيم، تمتد عابثة بكل ما تطوله من جسد الأنثى!

أشعر بروحي تضيق بالمدينة، وبجسدي ذاته، هذا ليس عيدًا ، هذه فوضى مقنّعة بقناع العيد!

- كل سنة وأنت طيب.

أنتبه، مهتديًا من ضلالات الخواطر السوداء، على هذه الجملة التي ألقاها أحدهم وراء ظهري، ألتفت لأجده واقفًا مادًا يده بترحيب، أخوها محمد ...أبتسم ابتسامة واسعة، أرد التهنئة بترحيب وسعادة حقيقيين، دائما ما كانت رؤية أحد أقاربها تسعدني، كما لو أنني أرى قطعة شاردة من روحها ، أو أستنشق شذرة منفلتة من عبيرها .

- "ما الذى تفعله هنا وحيدًا هكذا في صباح العيد؟" قال محمد.

أضحك قائلًا:

- أتجوّل في المدينة سارحًا كعادتي.

يغمز بعينه قائلًا:

- سرحان؟! أتحب أم ماذا؟

آه لو يعلم حقيقة ذلك الشرود، أتراها جوهر ذلك الشرود أم هي جزء منه يطفو

facebook.com/the.Boooks

إلى السطح، ثم يختفي مرة أخرى في خزائن العقل الباطن؟ لا أدري!

أتجاهل سؤاله المفخّخ وأرد:

- وأنت، ماذا تفعل هنا؟

يقول بفخر نافشًا صدره ومشيرًا إليه:

- "بودي جارد» العائلة كما ترى، جولة عائلية صغيرة مع أبي وأمي وأختي ...نستمتع بصباح العيد سويًا، قبل أن أتفرّغ لنفسي وأصدقائي مساءً.

انتابت جسدي قشعريرة غامضة لدى سماعي إياه يذكر أخته في جملته...أهمل عقلي باقي كلامه، اضطرب تفكيري ولاح واضحًا في تلعثمي وتعثري في الكلام، حين سألته بلهفة قاطعًا كلامه بغير قصد:

- حقًا ...أراك وحدك فأين هم الآن؟

يرتفع حاجباه تعجبًا من اندفاعي المفاجئ غير المبرر، ثم يشير بيده إلى الجهة المقابلة من الشارع..تتسلق عيناي ذراعه مسرعتين، وتنظران من علٍ في الاتجاه الذي يشير إليه، كان ذلك حين لمحتها...هي، سمو الأميرة، وجهًا ملونًا بين الوجوه الرمادية ...أنتيكة الذهب اللامعة الغارقة في صندوق النحاسيات الصدئة ..تقف بملابسها الأنيقة بجانب أمها أمام محل للعصائر، تنتظران تجهيز ما طلبتاه... بينما يجلس الأب في سيارته خلف المقوَد، مراقبًا الموقف من بعيد، وملقيًا نظرات لحظية تجاه ابنه.

facebook.com/the.Boooks

يندفع عصيري الأحمر بقوة إلى وجهي، بينما يخفق قلبي بعنف كقرع الطبول الإفريقية ..الأعراض المعتادة لرؤيتي لها.

أتماسك وأحاول أن أبدو طبيعيًا ، فأعود برأسي إلى محدّثي مستمرًا في الحديث معه، ومسترقًا النظرات إليها كل فترة.

كان ذلك حتى استأذن منّي محمد، متعللًا بانتهاء أمه وأخته من شراء ما كانتا تريداه..حوّلت رأسي تجاههما مرة أخرى مستوثقًا مما يقول..وجدتها وأمها تستلمان ما طلبتاه ثم تتجهان نحو السيارة.. حانت منها التفاتة نحونا...تراني...تلتقيأعيننا...تحمرّأذناي، وتضطرب مفاصلي.. تظهر على شفتيها شبه ابتسامة لا تكفينى ...ثم تدخل السيارة.

- أستأذنك في الذهاب ...مع السلامة.

هكذا كرّر محمد.

- لا عليك.. سأصحبك حتى السيارة.

أقولها بسرعة لم أستطع أنا نفسي استيعابها، ينظر لي باستغراب، فأستطرد:

- كي أسلّم على والديك ...لا يصح ألا أهنئّهم بمناسبة العيد.

تلوح بعينيه نظرة شك لحظية، سرعان ما تختفي ..نعبر الطريق سريعًا مقتربين من السيارة.. أمدّ يدي من خلال النافذة الجانبية للسيارة، مسلّمًا على الأب المتعجّب والأمّ المرحّبة، ثم أخيرًا أمد يدًا مترددة نحوها..تناولني أطراف

facebook.com/the.Boooks

أصابعها الرهيفة بتردد مماثل، فتستقبلها أناملي بلهفة ...يتعلّق بصري ببؤبؤيّ عينيها الواسعين.. أغوص بأعماق عينيها وابتسامتي المرتبكة تسبق كلمات التهنئة المتعثّرة ...هاتان العينان، عيناها...تسيطران عليك، تحاصرانك، تستحوذان عليك بالكامل، تقتنصان قلبك فريسة سهلة ...كلما تعمّقت في النظر فيهما ، ازداد جمود عقلك وشلل تفكيرك..وتغرق..تغرق في بحيرتين من السواد لا ضفاف لهما !

أنتزع عيني النهمتين من عليها بصعوبة، وأرفع رأسي المثقل بعقل مترنّح، وبابتسامة على وجهي، ويد مرفوعة بالتحية، أخطو للوراء قليلًا مودعًا الأسرة السعيدة.

حدث هذا الموقف الجميل في أوائل السنة الثانية من دراستي الجامعية...فلماذا أتذكرَة الآن؟!

***

facebook.com/the.Boooks

كنا كلّما توغّلنا أكثر في أدغال المراهقة الوعرة، ازداد التفكك والانفصال في مجموعة اللعب القديمة، وصداقات الطفولة البريئة.

كنا مجموعة واحدة تستمتع بألعاب وحكايا تمثّلنا جميعا، فإذا بنا تدريجيًا ننقسم إلى مجموعتين، مجموعة الأولاد وألعابهم، ومجموعة البنات وألعابهن، أقصى اليمين، وأقصى اليسار، بعد أن كنا سويًا في المنتصف بلا تفرقة.

لم يقع هذا الانقسام الكامل بدافع الطبيعة البشرية ونداء الهرمونات المميز للفرد فقط، وإنما بتدبير الأهل، وضغطهم المستمر على كل منا على حدة، كأن تنفرد بالفتاة أمها قائلة بهمس حازم:

- خلاص ...أصبحتِ آنسة كبيرة، لا يصح أن تستمروا في اللعب سويًا...هذا خطأ.

أو أن يزجر الأبُ ابنه قائلًا:

- أصبحتَ رجلًا، اخشوشن، وابتعد عن اللعب مع الفتيات الناعمات.

بالإضافة إلى كثير من الأقوال المتناثرة هنا وهناك، مثل: «لم يعد هذا لائقًا"، «تصرّف بحذر»، "لا نريد مشاكل"، «للفتيات خصوصيتهن"، وغيرها!

لم أفهم مقصدهم وقتها، لكن فيما بعد، حين تذكرت موقفًا حدث قبل أن يتم هذا الانقسام التلقائي الجبري في المجموعة، وحين كان زغب الشعر يشق

facebook.com/the.Boooks

طريقًا له تحت أنفي، حينما كنا نلعب لعبة من تلك الألعاب التي يكثر فيها الركض، أعتقد أنها كانت «استغّماية»، كان الدور عليَّ في الإمساك بهم...وقتها تعمدت تجاهل كل المحيطين بي ..انطلقت أجري بقوة وراءها ، بينما تجري هي صارخة ضاحكة.

أمسكت بها ، ولم أوقف اندفا ع جسدي، طوّقتها بيدي، وضغطت بجسدي على جسدها ، احتضنتها من الخلف بكامل قوتي، تسلّلت إلى أنفي رائحة ذلك العبق البديع لأول مرة ..ذلك العطر الوحيد الذى لم أجد له مثيلا، ينتثر بحرّية منطلقًا من شعرها وجذور عنقها ..يقتحم أنفي بقوة محطمًا كل الدفاعات، صاهرًا أعصابي، ليحتل مركز روحي ذاتها.

لم أستوعب كنهه جيدًا في تلك اللحظة القصيرة التي دام فيها احتضاني لها ، تنزع نفسها من بين ذراعيّ، وقد خفّف إمساكي بها من قوة ضحكاتها...لم تنتبه لمعنى ما حدث، ليتها انتبهت وقتها ، وانتهى الأمر ، ليتها !

تلك الليلة، استفسرت من أمي عن سر الرائحة الجميلة التي تخرج من شَعر بعض الناس، تلك الليلة، قاطعني النوم منتشيًا معي ببقايا العبق المترسّب بداخلي.

***

facebook.com/the.Boooks

كلما كبرنا في السن، كانت اللقاءات الأسرية تصبح أكثر ندرة، أو ربما هكذا يُخيّل إليّ، ربما كانت المدّة التي تفصل بين لقاء وآخر دائماً، ولكن العقل الطفولي دائمًا ما ينطلق بحماس اللحظة الحاضرة، يستمتع باللحظة ثم يتركها تمّر، ليهملها في صناديق الذاكرة الطفولية المشتتة الباهتة، والتي تغطّيها غالبًا طبقة سميكة من غبار النسيان ..هكذا هم الأطفال ...بلا ترقّب للمستقبل، كل لحظة يعيشونها هي اللحظة الأكثر تشويقا وإمتاعًا بالنسبة لهم.

بينما العقل الناضج يسجّل كل الأحداث بدقة، مهملًا لحظته الحاضرة، فتنصرف عنه تاركة إياه يتحسّر على مرورها هباءً، جامعًا في تحسّره بين ذاكرة الماضي النهمة التوّاقة لمزيد من الذكريات، وترقّبه لمستقبل بعيد...أو أبعد من البعيد.

في إحدى تلك اللقاءات الأسريّة، التي أصبح حرصي على حضورها أقل بكثير من حرصي الطفولي السابق.

كان الوقت صيفًا ولا أنسب منه وقتاً للقاء الأسر المعتاد، وكانت أسرتي أكثر الأسر تحمّسًا لهذا اللقاء، لفرحة أهلي ورغبتهم في الاحتفال بمناسبة سعيدة، وبرسائل البهجة الإلهية المتمثّلة في ظهور نتيجة الثانوية العامة، وحصولي على تقدير عالٍ مبشّر بالخير.

facebook.com/the.Boooks

كعادتهم، تحلّق الآباء حول منضدة، وتحلّقت السيدات حول أخرى، ينزوي الأطفال في ركن البهجة الخاص بهم، تتقارب رؤوس الفتيات في حديثهن الخاص، تتخلّله ضحكاتهن كل حين، وتتبادل أرجل الشباب كرة القدم في الملعب الصغير الملحق بالنادي.

لم أكن يومًا من محبّي كرة القدم، وإن كنت أشاركهم أحيانا، بدافع البحث عن رفقة، أو التخلص من طاقات الجسد الفائر.

لم ألعب كرة القدم ذلك اليوم ..سحبت مقعدًا مريحًا وجلست بعيدًا عن الجميع، ممارسًا عادتي المفضّلة التي أدمنتها لسنوات، المراقبة عن بُعد، أراقب كل ما يحدث حولي بعينين متفحّصتين، الحركات، السكنات، الضحكات، أي حركة غير مألوفة، مراحل التطوّر العمري، بينما أعقد المقارنات بين الصورة القديمة والصورة الحالية لمن تقع عليه عيناي، فقط، أشاهد وأتأمل ما يدور حولي من مكمني الوثير.

- وصلنا.

يرتعش فؤادي، وأشعر بانقباض غريب في معدتي لدى سماعي تلك الصيحة المرحة التي انطلقت منغّمة بصوتها الذي أعشقه، معلنة وصول سمو الأميرة وأسرتها.

تستأثر بانتباهي بالكامل كعادتها، تلتهم عيناي تفاصيلها ..لم أكن قد رأيتها

facebook.com/the.Boooks

منذ فترة طويلة، كانت قد اتخذت من نفرتيتي قدوة لها في فتنتها، فأصبحتْ، وهي بعد ابنة الستة عشر عامًا، أنثى كاملة الأنوثة، رشيقة الاستدارات بطريقة تحسدها عليها نساء أواخر العقد الثالث من عمرهن!

أراها من مكاني تسلّم على السيدات سريعًا، تتجه لصديقاتها الفتيات وتسلّم عليهن، معانقة إياهن الواحدة تلو الأخرى.

تجلس بصحبة صديقاتها قليلا، ثم تسحب واحدة من الفتيات من ذراعها، وتشرد بها بعيدًا عن الجموع في ثرثرة مستمرة.

أحفّز نفسي، أضع مزيدًا من حطب الاشتياق في نار قلبي المستعرة، أقف، أتّجه إلى حيث جلست مع صاحبتها، أتوقف على بعد ثلاثة أمتار، أفتح فمي فلا يخرج صوت، لم تلتفت إليَّ، تتهدّج أنفاسي وأنا أحاول النطق، فلا أقدر، يحمرّ وجهي، أسبّ نفسي سرًا ..أُخرج الهاتف المحمول من جيبي، وأضعه على أذني مداراة للإحراج القاتل!

ما الذي حدث لي ولجرأتي المعهودة؟ هل انحسرت أمواجها تاركة جذور الخيبة والخجل وراءها؟! يزداد حنقي على نفسي!

في صغري، كنت أتحدث معها بطلاقة لسان وروح مرحة، تثير شهيتها للضحك ...فماذا جدَّ على طباعي؟!

- كيف حالك؟

facebook.com/the.Boooks

كان هذا صوتها.

التفتّ إليها متعثّرًا في ارتباكي، كانت لا تزال جالسة مكانها، ولكن وجهها المنير موجّه ناحيتي، وعلى فمها ترقد ابتسامة مستطلِعة، أبتسم ابتسامة واهنة وأرد:

- الحمد لله، بخير، وأنتِ؟

تتسع ابتسامتها الرائعة، فتشتد إضاءة وجهها قائلة:

- الحمد لله.

أبحث عن كلمة أخرى، ليستمرّ جريان نهر الحديث بيننا، فألقي أول ما جال بخاطري من كلمات:

- ما أخبار نتيجة الثانوية العامة؟

يشحب ضوء وجهها، وتتضاءل ابتسامتها:

- لم أحظ بمجموع عالٍ.

ثم تضحك ضحكة مرتبكة وتردف قائلة:

- مبروك بالمناسبة.

- الله يبارك فيكِ.

أغيّر الموضوع سريعًا لترطيب الجو، أشعر أن عقدة لساني قد انفكّت جزئيًا، وإن شعرت ببعض الضيق من كلماتي السابقة، أحاول استعادة روحي المرحة

facebook.com/the.Boooks

السابقة، فأقول ضاحكًا:

-ساقاي متعبتان من الوقوف، ألن تطلبي مني الجلوس؟ ظننتك أكرم من هذا!

تضحك لأول مرة، فتثير فيَّ خليطا من مشاعر عجيبة ومتناقضة، ويزداد الاضطراب المبهم في معدتي..تنهي ضحكتها قائلة:

- آسفة جدًا ...تفضَل، اجلس معنا.

تسقط في الفخ بمنتهى الترحيب، لا تدري أني أحاول إطالة فترة حديثي معها ، لأقصى حد ممكن.

أتحرّر من وقفتي المتجمدة، لأجلس على الكرسي المجاور لها ، أتمنّى لو تنصرف عنا صديقتها ، لكنها تأبى الانصراف، أنظر إليها بضيق متعمَّد محاولًا هشّها بنظراتي، فلا تهتم بي!

نستكمل حديثنا المقطوع مع تدخلات عديدة من صديقتها ، التي تعلن بعد قليل أن حلقها قد جفّ من كثرة الكلام.

- فلنذهب لنشرب شيئاً.

خرجت الكلمات من فم صديقتها ، ومدّت يدها تحاول سحبها من ذراعها لتقف، فأدركت محاولتها البائسة لصرفي عنهما.

- سأذهب لأحضر لنا جميعاً ما نشربه.

إنطلقت الكلمات من فمي بقوة قاصداً الضغط على مخارج حروف كلمة

facebook.com/the.Boooks

"جميعاً"، وحدجت صديقتها بنظرة متوعّدة.

فاجأتنا ضحكتها، هي، سمو الأميرة، بينما تقول بنبرة ساخرة:

- الله على الشهامة، ولماذا تُتعب نفسك من أجلنا؟

أبتسم ابتسامة مرتبكة، وأرد بمغازلة متوارية:

- ما أجمله ذلك التعب الذي أتعبه من أجلك يا.....

أوشكتْ أن تفلت مني كلمة «حبيبتي"، ولكني أمسكت بها في اللحظة الأخيرة، واستبدلت بها لقبها السري، بينما أذناي آخذتان في الاحمرار:

- يا سمو الأميرة.

- سمو الأميرة؟!

تساءلت باستغراب، فاتسعت ابتسامتي وأنا أجيبها:

- أجل، أنا أراكِ أميرة.

تخضّبت وجنتاها بحُمرة خفيفة، وهربت بعينيها منّي، كانت هذه المرة الأولى التي أُسمِعها فيها لقبها الذي أطلقته عليها سرًا لسنوات عدّة.

لم أكن أنوي الكشف عن سري، لكنني تورطت في ذلك، لأداري غلطة ربما كانت لتدمر علاقتنا للأبد، لكن يبدو أن هذا اللقب حاز إعجابها، فواظبتُ على مناداتها به ولم أغيّره ..أبدًا.

سمو الأميرة، تُرى من أناديه بهذا اللقب الآن؟

facebook.com/the.Boooks

من؟!

***

facebook.com/the.Boooks

لا تُتعبي نفسك يا غالية ...

في البحث عن تجاربي الماضية..

كل نساء الأرض في كفّة....

وأنتِ يا أميرتي....

في الكفّة الثانية....

نزار قباني

facebook.com/the.Boooks

- جدّى، جدّي، جدّي.

يقتحم صوت علي المتحمس خلوتي اليومية، مشتتًا تركيزي، ومبعثرًا أفكاري على أرض الغرفة.

- نعم يا "سي علي" ...ماذا تريد؟

- خمّن من رأيت في الجامعة اليوم؟

- الموقف لا يحتمل تخمينات كثيرة ...ماذا كان تعليقها على قصيدتك؟

- قالت إنها كانت أكثر من رائعة، وإنها تعتقد أني سأصبح من كبار الشعراء يومًا ما... لم أصدّق نفسي عندما أخبرتني بذلك، وهي تبتسم في وجهي ..يبدو أنني أصلحت الخطأ السابق أخيرًا.

أبتسم ابتسامة حقيقية، ربما لأول مرة بعد الوفاة، منتشيًا بسعادة حفيدي، ومتفائلًا أن يكون قد وجد الحب الحقيقي في حياته.

- ليس لهذا الخبر فقط قطعت عليك خلوتك الثمينة ..كتبت لها هذه القصيدة، وأريد أن أسمع رأيك فيها، بصفتك من كبار الشعراء المصريين.

أضحك قائلًا:

- كبار الشعراء المصريين مرة واحدة؟! هذا النفاق لن يضيف إلى رصيدك شيئًا عند إبداء رأيي في القصيدة ..هيا...أسمعنا ما لديك.

facebook.com/the.Boooks

- حسناً.

تنحنح قليلًا ثم بدأ:

أميرتي

يا من اتخذتْ الرقّة من أطرافها أوطانًا

وانحنتْ الطواويس تواضعًا لها

روحها شفافة...لجمالها عزفت ألحانًا

ولعذب الصوت خفضت البلابل أصواتها.

(أميرتي؟! مرّة أخرى هذا التطابق اللفظي... من أين يأتي هذا الفتى بتلك الكلمات..هل سمعني قبل ذلك ...مستحيل!)

أميرتي

شكّلتُ لكِ بكلماتي ثوبًا

وعطّرته بنزيف القلب المجروح

لترسمي لي بصوتكِ لحنًا

ترقص لدى سماعه الروح.

(هل هو التاريخ يُعيد نفسه من خلال حفيدي؟! أم أن تلك الكلمات كالتركيبات

facebook.com/the.Boooks

الجينية، تنتقل بالوراثة ...أم أنني أتوهّم هذا كله!!)

أميرتي

ما أعجز قلمي عن التعبير

ولكن القلب يصرخ ويعلو به الدبيب

فأكتب مرسلًا إليك من العشق عبيرًا

تلك أمانيَّ ..فهل من مستجيب؟!

***

- أنت ..هل تسمعني؟

- أجل.

- من أنا إذن؟

- علي.

- كلا ..لستُ علي ... هل ترى هذا؟

- علي؟

- ما هذا؟

- علي؟

***

facebook.com/the.Boooks

- ما أروعك يا شاعرنا.

كنت أجلس في كافتيريا الكلية مع الأصدقاء، عندما اقتحم علي صديقي المقرّب المشهد، ملقيًا جملته، وساحبًا لنفسه مقعدًا ليجلس بيننا.

- ما قلته في حفل الجامعة منذ يومين كان رائعًا.. رغم أني تعجبّت قليلًا...إذ إنه ليس من عادتك إلقاء القصائد الرومانسية في تلك المحافل العامة ..أنت دائم الجنوح للسياسة في قصائدك.

أنظر له قليلًا ولا أعقّب..أجل يا علي ...أنا دائم الجنوح للسياسة...وقد كنت بالفعل على وشك إلقاء القصيدة التي أعددتها، لكن ..ماذا تتوقّع مني وقد رأيتها بين الحضور ..هي، سمو الأميرة، برزتْ فجأة أمام ناظري قبل صعودي على خشبة المسرح، فانسحب الهواء من حولي، واشتدّ وجيب قلبي، فما كان مني إلا أن استبدلت بالورقة الأولى ورقةً أخرى من جيبي...حقيقة لم أكن أعلم ما سيعود عليّ من تلك الحركة، لكنني فعلتها..كطريق محتّم ينبغي عليّ اجتيازه، أبدلت بالسياسة الغزلَ في لحظة...لهذا تهدّج صوتي في بداية الإلقاء يا علي...ولهذا ظلت عيناي معلقتين بنقطة واحدة في بحر الجماهير المتراصة، كان يجب أن تعرف..كان يجب أن تتأكد أن تلك القصيدة قد كُتبَت من أجلها ، ولأجلها فقط.

facebook.com/the.Boooks

- التغيير مطلوب بين الحين والآخر.

هكذا أبررّ تصرفي لعلي ..ولكل من سألني بعد الحفل، وهكذا سأرد على من سيسألني نفس السؤال مستقبلًا.

تتعلّق عيناي بنقطة معيّنة خلف علي، ترقبان هاتين الفتاتين الواقفتين تراقباننا من بعيد، ولمدة خمس دقائق متواصلة، أنتفض في مقعدي فجأة، منتبهًا إلى أنهما ليستا إلا هي، سمو الأميرة، وصديقتها مريم، زميلتي في الدراسة.

تتنبهان لتركيزي معهما، فتقطعان نظراتهما تجاهنا، وتستمران في حديثهما بوجهين جامدين.

تبتعد مريم فجأة، متخذة طريقها نحو الكلية، بينما تتخذ الأخرى طريقها نحو... نحونا! أجل، لم تعطب مراكز فهم وتحليل الإشارات البصرية في مخي بعد، كانت بالفعل تتّجه نحو مجلسنا...تقف على مبعدة وتشير إليَّ بيدها أن أقترب!

أنتفض من مجلسي، معتذرًا لمن معي، أتّجه بخطى ثابتة نحوها، بينما يتبادل أصدقائي الغمزات والضحكات القصيرة الخبيثة من وراء ظهري.

أقترب منها مبتسمًا ابتسامة باهتة، لم تلبث أن تلاشت مخلّفة وراءها تعبيرا قلقا، لدى رؤيتي ملامح وجهها المتجهمة.

ينقبض قلبي، أتوجّس شرًا، أحاول مغالبته بالتفاؤل والابتسام ..لا تنجح

facebook.com/the.Boooks

محاولاتي.

- سمو الأميرة، كيف حالك؟

لا ترد.

- ماذا حدث؟

صمت تام، تتعثر في رأسي الأسئلة ...تتخبط ...تتشتت، فلا يُوضع أيُ منها موضع التنفيذ والكلام.

بعد فترة من الصمت والتحديق في الأرض، تهمس بصوت ينزلق بصعوبة من بين أسنانها المنطبقة على بعضها بحدّة:

- الذي فعلته في تلك الحفلة...

ثم ترفع رأسها بوجه محمرّ من فرط الغضب، وبصوت عالٍ مباغت تصيح:

- كيف تجرؤ؟

يختلط الذهول بالتعجب في وجهي، وينتفض قلبي هلعًا من فكرة غضبها مني ..ترتجف أطرافي بعنف، حتى أُوشِك على الوقوع ..ينسحب الدم من وجهي، تاركًا لعينيّ الزائغتين ملاحظة التفات معظم من كانوا حولنا من الطلبة نحونا ..وتحفّز بعض الشباب الجالس على المقاعد القريبة منا.

يتعثر لساني في محاولة صياغة جملة سخيفة بلا معنى:

- أنا ..لم أفعل ...شيئًا.

facebook.com/the.Boooks

تنفجر في وجهي:

- حقًا؟ ماذا عن عينيك اللتين لم تتزحزحا من عليَّ طوال فترة إلقائك لسخافاتك بالأمس، ماذا عن زميلاتي وزملائي الذين يتغامزون ويتهامسون بجمل حقيرة في أثناء مروري بهم ..أتعرف ماذا يُطلقون عليَّ الآن، يلقبونني بالحبيبة المفقودة! كل هذا ولم تفعل شيئًا؟!

يتهدّج صوتها، وتطفر من عينيها الدموع في أثناء كلامها، بينما أقف أنا كالتمثال الرخامي الأجوف، يتردد صدى كلماتها بداخلي مدمّرًا إياي دون أن يغيّر شيئًا من ملامح وجهي المتجمّد.

تمدّ يدها في حقيبتها، وتُخرج ورقة بيضاء مكرمشة، تضعها أمام وجهي، مستكملة بصوت ضعيف، غلبته حشرجة النواح:

- انظر ماذا كتب هذا الحقير ..كل هذا بسببك.

أُلقي نظرة على الورقة، فأرى فيها:

"إلى الحبيبة المفقودة

ها قد اتضح أنك محترفة في الحب «والمصاحبة» ..لدرجة أنك لعبت على هذا الشاعر الأحمق، ليكتب لكِ قصيدة حب ..لماذا إذن كنتِ تصدّينني عنكِ طوال الفترة السابقة، أم أن اهتمامك محصور بطلبة كلية الطب فقط؟! في كل الأحوال من الأفضل لكِ أن تُنهي علاقتك بهذا الأحمق ...لأنني لا أتسامح مع

facebook.com/the.Boooks

من يفضّلون الآخرين عليَّ ...وإن لم تفعلي ما أطلبه ...فلتأخذي مني عهدًا بأن يعرف كل طالب في الجامعة بأنك سيئة الأخلاق والسُمعة ..بل وعاهرة أيضًا.

المحب المنتظر بفارغ الصبر»

حسين

أرفع عيني عن الورقة، لتصدمني عيناها المحتقنتان المحمرتان بشدّة، وخطَّا الدموع المرسومان على وجهها!

تفكيري مشلول، عقلي متبلّد تمامًا...صدى الأسئلة المتصارعة يكاد يقتلني، تنطلق بجنون متنافسة أيها يصل أولًا للساني، فتصل كلها في وقت واحد، فيبعثر لساني كلمات متفرّقة غير واضحة وبلا معنى!

- ما الذي...؟ كيف...؟ لماذا هذا الـ...؟ أنا...!

أنا لم أفعل شيئًا.

يستفزها تكراري السخيف، وردّي غير واضح الملامح، فتُكرمش الورقة في يدها بغيظ، ثم تُلقيها في وجهي فجأة، وتصرخ وهي تكيل لي الضربات على وجهي وصدري.

- غبي ...حيوان ..لا أريد أن أراك بعد اليوم!

تزداد ضرباتها قوة، ويتفجّر هياجها وصراخها المحموم إزاء وقفتي المتحجّرة،

facebook.com/the.Boooks

فلا أنا أتكلم وأدافع عن نفسي، ولا أنا أفعل شيئا لإيقاف زوبعة غضبها، ومنع ضرباتها من الوصول لجسدي!

- اختفِ من حياتي ..اذهب ..حيوان!

يهبّ الشباب المتحفّز الجالس قريبا مني، فيسحبها أحدهم بعيدًا عني وهي تصرخ بجنون، بينما ينهال الباقون عليّ بضرباتهم وركلاتهم، منتهزين الفرصة لاستعراض قوة عضلاتهم، وإفراغ طاقاتهم حبيسة أجسادهم، وفي نفس الوقت تلقيني درسا لا يُنسى!

أنتفض من وقفتي المتحجّرة أخيرًا لدى رؤيتها تبتعد، أندفع بجسدي محاولًا الخروج من مركز حلقة الشباب المهاجم، فلا أستطيع، أصرخ باسمها، أصدّ بعضًا من ضرباتهم وأردّ بمثلها، تصيب جسدي معظم ضرباتهم، يشتد ألمي فأنحني مغطّيًا رأسي بكلتا يدي، ينتبه أصدقائي من مكانهم البعيد للهرج والمرج الدائر، ثم يلاحظونني متكومًا على نفسي في منتصف حلقة الضرب، فيهبّوا لنجدتي.

يشتبكون مع الشباب، ويبعدونهم عني، أبقى في رقدتي على الأرض، نازف الأنف والفم ..أنظر في الاتجاه الذي اختفت فيه بيأس...وكرامة مبعثرة!

ألمح بطرف عيني الورقة، الورقة التي حملت رسالة ذلك الحقير حسين، ملقاة على الأرض بجانبي، أمدّ يدي بضعف، أُمسك بها، وأضعها في جيبي.

facebook.com/the.Boooks

***

facebook.com/the.Boooks

- علي؟

- نعم يا جدّي.

- علي؟

- من علي؟

- صاحبي.

***

facebook.com/the.Boooks

رنين جرس الباب المستمر يجذب انتباهي من رقدتي على فراشي، محاولًا استدعاء النوم، كان الوقت متأخرًا ، وعلي لم يعد بعد من نزهته مع أصدقائه.

تتجه ابنتي نحو الباب وهي تلف "إيشاربها" حول رأسها قائلة بتوتر:

- اللهم اجعله خيرًا.

تفتح الباب ..يندفع أمين صديق علي صارخًا بلهفة:

- الحقوا ...علي صدمته سيارة ونقلناه للمستشفى.

أنتفض من فراشي مذعورًا صائحًا بصوت متهدج:

- علي؟

أسمع صوت ارتطام مكتوم، أخرج من غرفتي مسرعًا ، لأجد ابنتي متكوّمة على الأرض، مغشيًا عليها ، بينما يقف الفتى أمين مذعورًا كفأر، لا يدري ماذا يفعل في هذا الموقف.

***

facebook.com/the.Boooks

نصف ساعة، استغرق الأمر منّا نصف ساعة، رششتُ الماء على وجه ابنتي، وصفعتها أكثر من مرة حتّى أفاقت، ثم ارتدينا ملابسنا على عجل، وانطلقنا بصحبة أمين، صديق علي.

نصف ساعة أخرى في الطريق إلى المستشفى، بسبب تكدّس السيارات في الشوارع الضيّقة للمدينة.

نصل المستشفى...أجد الفتى ملقى بإهمال على فراش في غرفة الملاحظة، ينتظر دوره ليتعطّف عليه أحد الأطباء الموجودين بنظرة!

أتشاجر مع الأطباء، وأصرخ فيهم معتمدًا على اسمي ومركزي كطبيب كبير ومعروف، أُنهي إجراءات نقله إلى الجناح الخاص.

ينفرد بي أحد الأطباء، مبلغًا إياي أن الحادث أدى لكسور في ضلوع القفص الصدري، يصاحبه ارتجاج شديد في المخ.

أتلقّى الأخبار بوجه ثلجي ظاهريًا، وقلب ملتاع، وأعصاب مرتعشة في أعماقي.

أسحب مقعدًا وأجلس جوار فراشه..أنظر لملامحه الجميلة، أشيح بعيني من منظر الضمادات الكثيرة على وجهه وصدره، ورغم رؤيتي للكثير من الدم في حياتي، فلم أحتمل المشهد، أراقب سريان المحلول البطيء في الخراطيم التي تنتهي بإبرة تخترق ذراع الفتى المسكين.

facebook.com/the.Boooks

أسمع صوت ابنتي، وكأنه آتٍ من عالم آخر، وهي تبلغ طليقها بما حدث لابنه، ينسحب صوتها وكل الأصوات الخارجية من أذني وعقلي تدريجيًا، فلا يتبقّى سوى صوت مكيّف الغرفة المتقطع، وصورة الفتى الهامد أمامي، شاحب الوجه، منعدم الحركة، وسؤال

وحيد يعبث بعقلي، ويؤرّقه، مردداً صداه بصوت أعلى مما أحتمل:

لماذا؟ لماذا يحدث كل هذا؟

لماذا أنا بالذات؟

***

facebook.com/the.Boooks

قال جدّي:

“دائمًا ما نجد للإحساس بالظلم مبررًا، نتشبث به بكل ما أوتينا من قوة، نحن نحب القهر، نعشق الحزن، لأنه يعطينا المبررات الجاهزة لفعل كل ما يحلو لنا ما دمنا تحت رايته».

***

facebook.com/the.Boooks

- عليها اللعنة.

- عليك أنت اللعنة.

- لا أحبُها ولا أريدها.

- بل تحبُها وتريدها.

- لم أفعل شياً لإيذائها ..الحقيرة.

- بل أنت السبب في كل ما حدث ...ولا تسبّها...أنت الحقير.

- وهل كان ذنبي أن كتب ذلك الجاهل حسين تلك الرسالة المشينة؟

طرقات على الباب يعقبها صوت أمي المتسائل عن حالي.

- ماذا تريدون مني؟

هكذا أردّ بحدة.

- لا شيء يا حبيبي ...أطمئن عليك فقط...هل..هل تتحدث مع أحد؟

- كلا ...واتركوني لحالي إذا سمحتم.

أسمع صوتها يلهج بالاستغفار والدعاء لي من خلف الباب المغلق.

تعتصر قلبي قبضة الأسى والإشفاق على أمّي المسكينة ...لا ذنب لها فيما حدث، ذنبها الوحيد أنني ابنها!

ابنها المجنون الذي يرقد على فراشه طوال اليوم يتحدّث مع نفسه.

facebook.com/the.Boooks

تصفع عقلي ذكريات الأسبوعين السابقين، أسوأ أسبوعين في حياتي..بعد أن عدت من الجامعة، توجّهت لغرفتي غير مبالٍ بأسئلة أهلي عما حلّ بوجهي النازف المتورّم ..أدخل غرفتي وأصفع بابها ورائي، وأغلقه بالمفتاح ..(هل اكتسبت هذه العادة المزمنة من تلك اللحظة؟)..أتكوّم على فراشي، ولأول مرة منذ أحد عشر عامًا كاملًا أبكي، أجل، أبكي، دموع قليلة انهمرت من عين لم تعتد البكاء، يصاحبها صوت نواح خشن طويل كعواء الذئب المجروح ..لم أكن أبكي إصابات جسدي ...فلقد اعتدت مثل تلك الإصابات، وما هو أخطر منها، منذ شجارات المدرسة الثانوية ..كنت أبكي حلمًا ضائعًا، حلم؟ كلا، كنت أبكي كيانًا ضائعًا، كنت أبكي روحًا ضائعة، كنت أبكي نفسي المفقودة، كنت أبكي بناءً كاملًا من الأحلام والتوقّعات، تعبت في تشييده سنوات عدة، من أحلام أيام الخطبة الملتهبة، إلى توقعات ليلة العُرْس المأمول، إلى نشوة الزواج الأولى، إلى أسماء الأطفال، أطفالنا، فإذا بي بعد كل هذا أكتشف أنني قد بنيته من الرمال على شط غرّني هدوء مياهه وانسيابيته الخادعة، وإذا بموجة لا قِبل لي بها تقتلع كل ما شيّدته في لحظة واحدة..ثم تنحسر بعدها ساحبة معها فتات الحلم إلى الأعماق، أعماق الضياع!

كانت مشاعري متراوحة ما بين الندم والغضب، لا أنفكّ ألومها، ثم ألوم نفسي، أو أجزّ على أسناني غضبًا ولا أفعل شيئًا، أو قد تتحوّل مشاعري بالكامل

facebook.com/the.Boooks

إلى حالة من الذهول وإهمال الاستيعاب، كيوم طرقت أختي الكبرى «نورهان» باب غرفتي بهدوء، بعد أسبوع من اعتصامي بها، نورهان صديقتي ومكمن أسراري الدائم، وإن كنت أعلم أنها تسرّب ما أخبرها به إلى أمي بين الحين والآخر، ولكني لم أكن أهتم بذلك، حسبي أن أجد أذنًا مصغية تسمعني.

جاءت تنصحني -بهدوء لئلا تستفزني- أن أنساها وأنسى ما مضى، وأُقبل على الحياة، لأنها لن تتوقف على شخص واحد، كما أن ...

- خطبتها بعد ثلاثة أيام!

هكذا صرّحت، بأكبر درجة ممكنة من خفوت الصوت، حتى خيّل إليّ أني لم أسمع ما قالته بشكل صحيح!

ولكنني كنت قد سمعت ما قالته، فوقف عقلي حائرًا أمام هذه المعضلة، أيحلّلها ويفهمها، ويتسبب في إيذاء صاحبه، أم ينفيها ويطردها كشائعة ضالة مضللة فيريح ويستريح؟!

أعتقد أنه -عقلي- قد اكتفى بإهمالها، في الوقت الحالي على الأقل، مفسحًا المجال لنفس السؤال الذى برز يوم المأساة التى تلاها كل شيء..

لماذا؟!

***

facebook.com/the.Boooks

لو أني أعرف أن الحب خطير جدًا...

ما أحببت..

لو أني أعرف أن البحر عميق جدًا...

ما أبحرت..

لو أني أعرف خاتمتي..

ما كنت بدأت

نزار قباني

facebook.com/the.Boooks

- أين عقلك المسافر الآن؟

هكذا قالت لمياء بضحكة مفعمة بالأنوثة.

أعود بعيني إليها من منظر النيل الساحر، أبتسم وأردّ بصوت أصابته بحّة الصمت الطويل:

- لا شيء.

تسدل أجفانها قليلا على عيونها البنّية..تضم كفيها أسفل ذقنها، وتميل إلى الأمام قليلًا هامسة بصوت مثير:

- أحبك...أتعرف هذا؟

أنصرف بنظري عنها مرة أخرى، وأنا أردّ بشرود:

- أجل ...وأنا أيضاً أحبّك.

لكن هل أحبها حقًا، أم أنني فقط أستبدل بمشاعري الحقيقية الغريزةَ الحيوانية، أو ربما أسدّ فراغات قلبي، لمياء فتاة لا بأس بها، متوسطة الطول، رشيقة القوام، تعرف كيف تضحك وكيف تجذب انتباهك، كما أنها جريئة جدًا أيضًا.

تدور بعقلي ذكريات اليوم الذي قابلتني فيه لأول مرة، كنت لا أزال في أوج مرحلة الاكتئاب الشديد الذي أصابني، بعد خطبتها، هي، سمو الأميرة، كلا

facebook.com/the.Boooks

لن ألقّبها بهذا اللقب بعد الآن ..لا تستحقه!

يشتد غليان الذكريات بعقلي، أجل، أتذكّر جيدًا اليأس القاتل الذي أصابني من رسم سيناريوهات انفصالها عن خطيبها ..ذلك اليوم عندما جاءت أمي لتخبرني -بكلمات مقتضبة- أن فرحها اليوم، وأنني يجب أن أحضر.

- قولوا لهم مات.

هكذا صرختُ بأعلى صوتي.

- بعد الشر عنك يا حبيبي ..لا تقل هذا.. لا تعذّب أمك معك..هيا ارتدِ ملابسك، وتعال معنا.

آخذ شهيقًا عميقًا، محاولًا السيطرة على أعصابي التي انفلتت من أسرها.

- لن أذهب معكم ...اذهبوا أنتم.

تدمع عيناها وهي واقفة أمامي ..أشفق عليها من أعصابي المنفلتة من أسرها، ومن العذاب الذى تعاني منه، محاولة إخراجي من حالتي.

أبتسم ابتسامة صغيرة قائلا:

- لديّ موعد بعد قليل .. لا يمكنني تفويته.

تنظر لي بشك وتغمغم:

- حقا؟!

أنهض من فراشي حيث كنت جالسًا ..أتحرّك نحوها وأطبع على رأسها قبلة

facebook.com/the.Boooks

حانية مؤكدًا:

- حقاً ...اذهبوا أنتم، وإن سألكم أحد عنّى فعلّلوا غيابي بأي شيء يخطر على بالكم..قولوا لهم مشغول بامتحاناته.

- حسنًا .. كما تشاء.

قالتها وانصرفت عني، قبل أن أغمغم بصوت خافت:

- أعتقد أن غيابي أفضل للجميع في هذه الحالة.

أجل ..من ناحيتي لا أستطيع رؤيتها متزّينة ومرتدية فستانها الأبيض من أجل شخص آخر ..هذا أشد مما تبلغ قوّة احتمالي ..ومن ناحيتها هي..لا أريد أن تسبب لها رؤيتي آلامًا نفسية يوم عُرسها...حتى لا تعصف بعقلها زعابيب الذكريات السيئة ...أما من ناحية أهلها ...حسنًا ...أعتقد أنهم لم يوافقوا على خطبتها بهذه السرعة...وبعد ما حدث مباشرة إلا لسبب واضح..وأغلب الظن أنهم كانوا سيرفضون هذا العريس في ظروف أخرى أفضل ..أحد أصدقائي أخبرني أنه يعرف أخا العريس، وأنه سمع عن العريس أنه عابث ولا يكتفي بامرأة واحدة ...أو لعلّي أظلمه ... وأتحامل عليه لأنه فاز بجائزتي ... ربما هو أفضل مني ...ربما ... علمت أيضاً أنه ....

- ضابط شرطة.

تخرج الجملة من فمي بصوت خفيض، وسط شرودي، ناسيًا وجود لمياء

facebook.com/the.Boooks

بجواري ..ترد بدهشة:

- ماذا؟

واضح أنّها سمعتني ...لا بدّ من إكمال جملتي إذن:

- العريس ...العريس ضابط شرطة.

تدرك ما أعنيه، فيكفهرّ وجهها، وتظلم عيناها بحزن:

- ألم نتفق على ألا نذكر شيئًا آخر من هذا.... مضى على زواجهما أكثر من ثلاثة أشهر ...حتى العريس لم يعد عريسًا ..هل تعلم أنك تُهينني بذكرك الدائم لها.

- أنا آسف.

تضيق عيناها وتنظر لي بتأنيب قائلة:

- سامحتك ...لكن لا فائدة من الندم فعلا، هل تدري هذا؟

أجل .. أدري يا لمياء ...لا فائدة من الندم ..في أثناء اكتئابي فعلت كل ما يحلو لي للتعبير عن غضبي ..كسرت كل مرآة وجدتها في طريقي..صرخت بأعلى صوت يمكن لحبالي الصوتية إنتاجه ...ركلت الأبواب ..ضربت الحوائط...اختلط الغضب بالندم داخلي، فنتج كائن مشوّه، لا يمكن ترويضه والتعامل معه!

- هل تعرفين؟

أقول مغازلًا لمياء في محاولة للتخفيف من حدّة الجو المشحون.

facebook.com/the.Boooks

- لا تنسي أنني لو كنت قد ذهبت إلى ذلك الفرح وقتها، لما كنت قد قابلت أجمل هدية أكرمني الله بها في حياتي.

تضحك ضحكة صغيرة، وتُسدل أجفانها مرة أخرى بتلك الطريقة المثيرة، ثم تهمس بدلال:

- نسيت ما حدث وقتها ...ذكّرني أنت.

آه ...أنتِ تريدين التمادي في اللعبة إذن ...حسنًا كما تريدين.

أقول ضاحكًا:

- ولِمَ أحكي أنا دائمًا ...فلتتكلمي أنتِ هذه المرة ...الآن أنا الشخص فاقد الذاكرة ..وأنتِ من سيذكّرني يا حلوتي.

تضحك بشدة ثم تقول:

- حسنًا.

***

facebook.com/the.Boooks

قالت لمياء متصنّعة الجدّية:

"(وإن كنت ناسي ..أفكّرك) ...هكذا غُنت الرائعة هدى سلطان قديمًا ..ذلك اليوم بالذات ...كنت «مخنوقة» جدًا .. تلك الحالات المستعصية من الملل التي تصيبني بين الحين والآخر ..اتصلت بصديقي، واتفقت معها أن ننزل لنتمشّى قليلًا ...كنت على استعداد لفعل أي شيء إلا الجلوس في المنزل هكذا، جبنا شوارع البلد كلها تقريبًا ...انتقدنا كل ما يمكن انتقاده ..ضحكنا على كل ما يمكن الضحك عليه ..ابتعنا بعض الإكسسوارات والحُلي للزينة...عبثنا بكل الملابس في المحلات دون البحث عن شيء محدد، ودون شراء أي منها ..هلكت أقدامنا تمامًا من المشي ..أصابنا التعب...قررنا الاستراحة في أول «كافيه» نمرّ به ...ندخل الكافيه ...نجلس على أقرب كرسيين للمدخل ...تأخذ عيناي الجميلتان جولة كاملة في كل أنحاء الكافيه.. تتوقّفان طويلًا على وجه الفتى الطويل الوسيم المنزوي في أحد الأركان .. بادي الكآبة على الوجه ...دامع العينين، أحمرهما ..يمر بيده على عينيه يمسح ما بهما من بقايا دموع، ثم يعود إلى الكوب الراقد أمامه، يرتشف منه رشفة ثم يتركه ...ويكرّر الدورة مرة أخرى .. أشعر بمزيج من الإعجاب والشفقة عليه ...فنادرًا ما أرى شابًا بهذه الشاعرية ..أنظر إلى صديقتي المتطلعة إليّ، متعجّبة من تحديقي المستمر بهذا الشاب...أتجاهلها، أنهض، مشجّعة نفسي على الاقتراب منه، أقف أمامه

facebook.com/the.Boooks

مباشرة وأتنحنح قائلة «لا شيء يستحق كل هذا الحزن» ..يرفع وجهه، فأرى سواد العينين اللتين أصبحتا جزءًا من روحي..عيناك يا حبيبي".

***

facebook.com/the.Boooks

أنهت لمياء كلماتها بإسدال جفنيها على عينيها، كعادتها كلما شعرت أن ما قالته يستوجب إضفاء بعض الإثارة عليه.

أعلم جيدًا أنها ألّفت نصف ما قالته في التو واللحظة ...وأن رؤيتها لي في الجامعة في اليوم التالي لم تكن مصادفة كما ادّعت ...أعلم النتائج وأجهل الأسباب!

لكنني لم أتوقّف يومًا عند تلك الأسباب ... هل هو هروب من المواجهة؟ لا بأس بذلك ...دائما ما كنت -وسوف أظل- ذلك الشخص.

تقترب بمقعدها منّي ..تلتصق بي ...تمد أناملها تداعب يدي، وهي تهمس في أذني بنعومة:

- أحبك.

- وأنا أيضًا.

- أكمل كلامك ..أنت أيضًا ماذا.

- أ.. أنا أيضًا ....

...أحبك.

***

facebook.com/the.Boooks

عندما ينزل أحدهم ضيفا على أحد البرامج التليفزيونية ...فإنه يعدّ حديثه كله أو معظمه إعدادًا مسبقًا، ويحاول تحليته بطُرفة او اثنتين، وربما بعض المواقف المشبّعة بالحكمة، التي يدّعي قائلها إنه تعرّض لها شخصيًا..يتأنق في الحديث...يحاول أن يبدو رائعًا ..

هذا بالضبط ما فعلته وما قلته في أول موعد غرامي لي مع لمياء!

اتصلتْ بي بينما كنت في الجامعة، لتخبرني بصوت متهدج يعطي التأثير المطلوب، أنها لم تعد تستطيع كتمان مشاعرها نحوي، وأن سماع صوتي يُلهب أعصابها، وأنها قضت ليلتها مؤرّقة تفكر بي!

- أشعر أني ...أحبك.

تقولها بصوت منخفض، يصلني كالفحيح عبر سماعة هاتفي المحمول.

- ماذا؟

- أنا ...أحبك. أعلم أن ظروف لقائنا لم تكن طبيعية ..أعلم أنك ربّما لا تكنّ لي أي مشاعر ... ولكني أقولها صراحة ...أنا أحبك.

اضطراب في معدتي ..جفاف في حلقي ..لا أستطيع الرد عليها ...أحاول جاهدًا ...لكن صوتي يأبى الخروج.

- أريد أن أراك اليوم ..بل الآن.

facebook.com/the.Boooks

تُكمل كلامها ، غير منتظرة ردّي.

أخيرًا عثرت أحبالي الصوتية على صوتي، فأطلقته:

- حسنًا.

تخرج مني بصوت أجشّ.

أُنهي المكالمة شاعرًا بتبلّد عقلي بالكامل ..هل قالت أحبك؟! لم تقل لي أي فتاة من قبل كلمة أحبك ...يا الله ...كم هي رائعة تلك الكلمة ...لا يهم من قائلتها ...يكفي أن تسمعها بصوت أنثوي، موجهة إليك أنت ... أنت ولا أحد غيرك ... تلك القشعريرة التي اجتاحت جسدي كله حين قالتها أول مرة .. أول مرة هي الأروع والأكثر سحرًا وجمالًا بالتأكيد.

كنت وقت اتصالها مشغولًا بمراجعة مادة، سأمتحن فيها خلال أقل من ساعة، فلمّا أنهيت المكالمة انتابتني حالة من الابتهاج المفاجئ، بالإضافة لدوار خفيف، فأصبحتُ أبدو كالمخمور!

تتعاظم عندي حالة اللامبالاة تجاه المراجعة، وتجاه الامتحان نفسه، أُغلق كتابي وأنظر لعليّ الذي كان يجلس بجواري يراقب انفعالاتي بعين صقر متربص... أقول بلهجة ناعسة:

- الحب حلو يا علي.

لم أبال وقتها بأدائي في الامتحان ...كنت كالمغيّب ذهنيًا ...كل ما يحدث

facebook.com/the.Boooks

حولي هو شبح الحدث الحقيقي ...خلفيته باهتة الألوان ...أنهيت امتحاني وهرعت إلى مكان اللقاء.. كنت متحمسًا جدًا للقائها.

هل كان كل ذلك بفعل قوة تلك الكلمة السحرية ..أحبك؟!

وهل أحبّها فعلًا، أم أنها سيطرت على مشاعري وسخّرتها وقادتها تجاهها بتلك الكلمة الخلابة؟

أراها آتية من بعيد ... لأول مرة ألاحظ أن وجهها أصبح أجمل، وأن عينيها أوسع ولونها البني يلمع ..تقترب ...تسلّم عليَّ بأطراف أصابعها بدلال ...وجهها محمرّ بشدة، لا أدري أكان بسبب حرارة الشمس أم الخجل!

لأول مرة ألاحظ أن كلماتها قد أصبحت أكثر نعومة وإثارة ...وأن همساتها أصبحت تصهر الأعصاب ..أمسكت بزمام نفسي بصعوبة وأنا أشعر بسخونة شديدة في رأسي ومعدتي ...كان ذلك انتشاء اللحظة الأولى...لحظة الحب الأولى.

نجلس سويًا على منضدة منعزلة بعيدة ..تلاحقنا أعين بعض المحبين، لحظات قصيرة ثم يعودون بعدها إلى سيل كلمات الغرام المتبادلة، والقبلات القصيرة المسروقة بعيدًا عن أعين الناظرين.

- أنت تشرد كثيرًا ..ألم تلاحظ هذا؟

تقول منبّهة إياي.

facebook.com/the.Boooks

- ماذا؟!

تتجاهل سؤالي الذاهل، وتستأنف كلامها بضحكة.

- ما زلت أقارن بين ذلك الفتى الكئيب المكتئب الذي قابلته أول مرة، وذرف شلالًا من الدموع، وهو يحدّثني دون سابق معرفة بيننا عن فرح حبيبته السابقة، المقام في نادٍ قريب، وتغيّبه عن تلبية رغبة أهلها بالحضور، وهذا الفتى المبتسم ابتسامة عريضة، الجالس أمامي الآن!

بين المحطّم، الموشك على الموت كمدًا ...والمنتشي السعيد الذي يراقبني الآن بينما أتحدّث...حبيبي.

تتكدر سعادتي من كلامها، وتذكيرها لي بما فات..ينهار جدار الانتشاء اللحظي الذي كنت أشعر به، فأقول بضيق:

- أنتِ جريئة جدًا أيضًا ...ألم تلحظي هذا؟

تتحوّل ملامحها إلى الاستنكار للحظة، قبل أن تهزّ كتفيها وتقول بلا مبالاة:

- عادي جدًا ...أنا أقول ما أشعر به فقط.

أغيّر مجرى الحديث قبل أن يتكهرب الجو ...أبعثر بعض ما أعددته مسبقًا من كلمات ...استجابت لمحاولتي ضاحكة بدلالها المعهود على ما يجدر بها الضحك عند سماعه.

تزداد حميمية اللقاء، أمد يدي بهدوء لتمسك يدها المتلهفة لاستقبالى...تنتابني

facebook.com/the.Boooks

مشاعر عجيبة ومتناقضة، وتزداد درجة الخدر الذي أشعر به...يحيط كفي كفها، الذي يستكين داخل كفي، حيث مأواه المكتوب منذ الأزل.

أنظر بعمق في عينيها الجريئتين النفاذتين، فينطفئ لمعانهما، وتهرب بهما مني لحظة، وتختلج شفتاها مع احمرار طفيف في الخدين ..يا الله ...تلك أنثى متعطّشة للحب ...توّاقة لذاك العالم الورديّ المفعم بالآمال العريضة، والذي يحيط بكل المحبين ..نهمة لكلمات الغزل التي يلقيها أي محب على مسامع حبيبته باحترافية عالية، تحاول تحطيم جدار الواقع الصلب بقبضتين عاريتين.

مثلي تمامًا.

***

facebook.com/the.Boooks

- ساعدك الله يا بني ...ساعدك الله يا حبيبي.

صوت نحيب متواصل.

صوت زاعق يصيح:

- اهدئي قليلًا حتى نجد حلًا.

- كيف أهدأ وأنت ترى ابنك ينهار ..يتحطّم ..هل تريد تدمير كل ما تعبت في بنائه ..أليس هذا ابنك أيضًا؟

***

facebook.com/the.Boooks

ينتفض جسدي انتفاضة مفاجئة، مع ذلك الصوت الزاعق الذي أوشك على تحطيم طبلة أذني ..أدرك متأخرًا أنني قد غفوت بينما أنا جالس على ذاك المقعد المتعِب أمام فراش علي في المستشفى.

يخترق الصوت المزعج أذني مرة أخرى، فأنظر باتجاه الباب، حيث مصدر الصوت.. لم أر إلا اشكالًا ضبابية غير مميّزة ..أحدها يلوّح بعصبية في وجه آخر.

أغمض عينيّ وأفتحهما مرتين، حتى تتضح الرؤية ..تدريجيًا أميّز شكل ابنتي الواقفة بوجه جامد أمام انفجار غضب طليقها، الذي يلوّح بيده بعصبية صارخًا بكلمات كثيرة وجمل متقطعة، بطريقة كلامه التي تأكل الحروف، فلا تفهم منه كلمتين متتاليتين.

يستمر في صراخه غير منتبه لاستيقاظي ...ألتقط من وسط كلماته بعض الجمل المتناثرة مثل ..

"أضعتِ الولد"، "قلت لكِ منذ البداية أنه يجب أن يبقى معي أنا...مع والده".

فجأة يتحطّم قناع الجليد البارد الذي غطّت به ابنتي وجهها، وتنفجر في طليقها صارخة بعبارات كثيرة متلاحقة تكتظّ بالسباب.. وأنت السبب في خراب البيت ...أنت من لعبت بذيلك ولم ترضَ بامرأة واحدة في حياتك...وبماذا قّصرت في حقك ...وما السبب .وعليك اللعنة ...و ...و.

facebook.com/the.Boooks

- اصمتا.

صحتُ فيهما بصرامة، قاطعًا سيل الصراخ والسباب بينهما، بينما أقوم من مقعدي ..نظرت لي ابنتي بوجه محتقن، ثم دفنت وجهها بين كفيها، وشرعت في النحيب بصوتٍ عالٍ.

أحدج طليقها بغلٍ مكتومٍ وأقول بصوت صارم:

- فات أوان ما تتكلمان عنه.

- لكن ...

- اصمت.

يبتلع لسانه، ويرتمي على مقعد مغتاظًا.

- جدّي؟

ينزلق قلبي بين قدمي، وألتفت متلهّفًا نحو مصدر الصوت.

كان علي راقدًا في فراشه، يراقب ما يحدث بعينين مغيّبتين.

ينتفض كلٌ من أبويه من مكانه، ويندفعان نحوه:

- نعم يا حبيبي .. لا تبذل جهدًا في الحديث حتى تستقر حالتك.

لا يبدو عليه أنه سمعني.

- قاتِل يا جدي.

- ماذا؟

facebook.com/the.Boooks

- الألم ..الألم ..حارِب.

أُسكته واضعًا يدي على فمه، وأنا آمره بالاسترخاء وعدم الحديث، فيعود فورًا للنوم، وكأنه لم يستفق منذ ثوان ويتحدث إليّ!

أنظر إلى والديه المصعوقين، بينما عقلي مشغول بتحليل ما قاله، مفكرًا في معنى منطقي له ..أتنهد..في الغالب، هي مجرد هلاوس ناتجة عن تعبه الشديد!

قاتل يا جدّي ..حارب الألم.

قاتل.

***

facebook.com/the.Boooks

-51-

“طريق الحب الحقيقي لم يكن أبدًا طريقًا سلسًا”.

ويليام شكسبير

***

facebook.com/the.Boooks

لماذا نحب دائمًا أن نتحسّس مواضع آلامنا، رغم إدراكنا المسبق أن ذلك سيسبب لنا آلامًا مضاعفة.

هل هي نشوة البشر بتعذيب أنفسهم؟

أم فضول متكرر يتحوّل مع الوقت لعادة لا شعورية؟

أم مجرد تذكرة لأنفسنا بمواضع الألم ومسبباته، وتعميق نحتها في جدران المخ وترسيخها كندبة بأرواحنا؟

لا أعلم تحديدًا ..ولكن ما أدركه تمامًا هو أنني أقف في شارع مزدحم أمام مركز تجاري مكتظ بالبشر، أضع يدًا في جيب، وأرفع الأخرى بالساعة الصغيرة المعلقة بها، ملتفتًا إليها كل دقيقة ..مستندًا إلى حائط قصير...مراقبًا كيان الأضواء والبشر والسلع الرابض أمامي..منتظرًا خروجها من قلب ذلك الكيان ..أجل ..هي، سمو الأميرة..اللعنة ...ألم أقل إنني سأتوقف عن مناداتها بهذا الاسم ...ألهذه الدرجة أصبحت المشاعر عادة والحب إدمانًا؟ ..أجل ...لم أستطع النسيان، أو فلنقل لم أُرد النسيان..رفضته ورفضني!

ما زلت متشبثًا بشعرة الأمل الواهية المتعلقة بالجسد المتهدم شبه الفاني لحب مكتوم يقاوم الزوال.

كنت قد رأيتهما، هي وزوجها، مصادفة في الشارع، في أثناء تجوالي الذي أصبح عادة شبه يومية ..لا توجد مصادفات سعيدة، المصادفات دائما سيّئة!

facebook.com/the.Boooks

وفي المرات النادرة التي يمنّ علينا القدر فيها بمصادفة سعيدة، نفرح ونقفز ونثق بأننا نمتلك عملة الحظ، وأننا محظوظون دون غيرنا .. كل هذا هراء وضعف بشري ورغبة في الشعور بالتفرّد!

رؤيتها كانت مزيجًا من سعادة قصيرة الأجل، وحزن ممتد إلى ما لا نهاية.. مزيج من الصُدف.. كنت أصارع المشاعر ..أقاتل الذاكرة..كنت أحلم بالنسيان ولم أُرده، فإذا بها تظهر هكذا أمامي فجأة لتنهار مقاومتي، ويجرفني سيل المشاعر والذكريات، وتبتلعني دوّامات الألم مرة أخرى.

وبأي صورة تظهر؟! وهي متعلّقة بذراع زوجها، وتميل عليه بجسدها...كانا يسيران كالمخطوبين حديثًا، وليس كزوجين مضى على زواجهما نحو عام ونصف..عجيب..أخبرتني أختي من فترة أن علاقتهما متوترة وتشوبها الخلافات!

فما تفسير ما أراه أمامي إذن؟

أراه يميل بوجهه ناحيتها كل فترة، ويهمس بجملة أو جملتين، تنطلق بعدها ضحكتها الصافية، فتحاول كتمانها، بوضع يدها على فمها..تلك الحركة التي دائما ما عشقتها فيها!

هل كانت أختي تحاول التسرية عني بكلماتها؟

أم أنهما مختلفان فعلًا، ولكنهما لا يُظهران مشاكل حياتهما الشخصية للعلن،

facebook.com/the.Boooks

فيبدوان كزوجين سعيدين دائمًا؟!

وهل يمتد التمثيل فيشمل أن يهمس زوجها بكلمات الغرام في أذنها كل خمس دقائق أو أقل، فتجاريه هي وتضحك بتلك السعادة؟!

أم لعلّها لحظات صفاء قصيرة في علاقتهما المتوترة ..أم لعلّها... كثير من الاحتمالات التي لا تعنيني!

وها أنا ذا أتابعهما من بعيد، أسير خلفهما بطريقة لا تليق بي..أحاول التلاشي بين أطياف البشر حتى لا تلمحني عند أول التفاتة منها إلى الخلف!

يدخلان ذلك المركز التجاري الكبير، فأقبع بانتظار خروجهما ..ما هذا الذى أفعله؟

لماذا تتلبسني روح المراهق العنيد؟!

ولماذا الآن؟!

أعني .. لديّ لمياء ...فتاة جميلة وتحبّني ...أما هي فلا يحق لي الآن النظر إليها حتّى ...هي سيدة متزوّجة ... وعما قريب ستصبح أمًا.

ثم هل نسيت كيف أهانتني في آخر لقاء بيننا ..وكيف تسبّبت في أن مجموعة من حثالة الشباب إمتلكوا الدافع الظاهرى للإعتداء عليّ بالضرب؟!

تخرج فجأة من المركز التجاري ...لكن دون زوجها هذه المرة! كانت تسير مسرعة ...توشك على الجري إذا شئنا الدقة، تمسح وجهها بيديها..تبكي!

facebook.com/the.Boooks

ما الذى حدث؟!

يتلاشى كل ما حاولتُ حشده في صدري من غضب ونقمة تجاهها...يتبخَّر مخلفًا هلعًا عليها ...أهم باللحاق بها...قبل أن أنتفض جرّاء إحساسي المفاجئ باليد التي وُضعت على كتفي فجأة ..ألتفت مندهشًا، فأجده أمامي، إنه محمد، أخوها! لماذا يحب أن يظهر بتلك الطريقة المفاجئة دائمًا ...بلا مقدمات!! لكنه لم يكن بمرحه المعتاد الذى عهدته عليه ..كان مكفهرّ الوجه، وبعينيه وعيد غامض لم أستطع تحديد كنهه!

ما الذي أتى به إلى هذا المكان أصلا؟ وفي هذا الوقت بالذات؟

هل كان يراقبني، أم أنه رآني للتو؟

- أهلًا محمد أفندي...كيف حالك؟

أرحّب به بطريقة مرحة، محاولًا استشفاف سبب غضبه.

- لماذا؟

يقولها بصوت متوتّر، متجاهلًا ردّ التحية، فأرد بدهشة:

- لماذا ماذا؟

- لماذا تتبعها؟ ولماذا الآن؟ ألا يكفيها ما حدث لها بسبب تصرفاتك الحمقاء؟!

- ماذا؟ .. كيف تجرؤ على التحدث معي بهذه الطريقة يا محمد؟

يتجاهل اعتراضي الغاضب ويواصل:

facebook.com/the.Boooks

- أرجوك .. اختفِ من حياتها .. لا أحد يعلم ما الذى سيحدث لها إذا رأتك مرة أخرى ..ألا يكفيها ما هي فيه؟!

ألمح بطرف عيني زوجها يخرج من المركز التجاري، وينطلق مسرعًا في أثرها، وهو يبدو حانقًا.

- محمد .. أنت لا تعلم حقيقة ما حدث ذاك اليوم .. يجب أن ..

يقاطعني ببرود:

- ولا أريد أن أعلم ..ما حدث قد حدث ...قدّر الله وما شاء فعل...انتهى هذا الموقف منذ زمن بعيد ...وهي الآن سيدة متزوجة ..اتركها وشأنها.

أتطلع للاتجاه الذى انصرفت منه في يأس، ثم أنظر إلى محمد مرة أخرى قائلًا بتردد:

- حسنًا يا محمد ..سأختفي ..ولكن تذكّروا مستقبلًا أنكم من كنتم السبب في تدمير حياتها، بموافقتكم على هذه الزيجة.

تقفز الدهشة لوجهه وهو يقول:

- من قال إن هذه الزيجة كانت من اقتراحنا نحن .. هي من وافقت ...وهي من رغبت في الزواج منه، بالإضافة إلى أن زوجها قريب لنا كما تعلم.

يحين دوري في الاندهاش هذه المرة، هي من وافقت؟! وهى من رغبت؟! لماذا؟ لماذا يا سمو الأميرة؟

facebook.com/the.Boooks

كنا سنصلح كل ما بيننا ...كنا سنعود كما كنّا وأفضل ...كنت سأعترف لكِ بحبّي صراحة ..كنت سأتقدم رسميًا لخطبتك .. وكنتِ ستوافقين ...كنتِ سترجعين سعيدة كما كنتِ دائمًا ، وتبتسمين في وجهي ابتسامتك التي تنقذ روحي من الهلاك تحت وطأة ترس الحياة الطاحن.

كنت سأعيد بناء قصر أحلامي المدمَّر ..كنا سنتحدث ونحب بعضنا بالساعات بمنتهى الحرية.

كنت سأسمح ليدي أن تفتش عن ذاتها بين خطوط كفك وثنيات أصابعك..كنا سنتزوج وننجب بنتًا جميلة تشبهك ...هل كنتِ تعلمين أنني كنت سأسمّيها نور، خاصة إذا ورثت عنكِ عينيكِ العميقتين...كنا ..وكنتُ...وكنتِ ...فلم العجلة إذن يا معذّبة الفؤاد؟!

لماذا التسرع؟

ولماذا الخوف؟

لماذا؟

***

facebook.com/the.Boooks

يا امرأة لا تتكرّر في آلاف الأزمانِ

يا امرأة ترقص حافية القدمين بمدخل شرياني

من أين أتيتِ؟ ..وكيف أتيتِ؟

وكيف عصفتِ بوجداني؟

نزار قباني

facebook.com/the.Boooks

- كل هذه المدة دون أن تتصل بي؟!

هكذا جاءني صوت لمياء الغاضب، عبر سماعة الهاتف المحمول.

كانت ثلاثة أيام كاملة قد مرّت على رؤيتي لها، هي، سمو الأميرة، مع زوجها، وكنت في حالة نفسية سيئة، لا تسمح بمثل هذه المهاترات الكلامية وتمثيل الغضب والاعتذارات الملفوفة بالسكر.

أردّ باقتضاب:

- كنت مشغولًا.

تستشعر ضيقي، فتغيّر لهجتها قائلة بدلال ممزوج باللهفة:

- حسنا، مشغول حتى عن سماع كلمة «أوحشتني" ..أوحشتني جدا!

ثم صوت فرقعة مكتومة، أعقبها صوتها وهي تكمل بنفس الدلال:

- وهذه قُبلة مني لك ..اختر لها موضعًا.

أشعر بالاختناق، ويتحشرج صوتي وأنا أقول:

- صدّقيني يا لمياء ...لستُ في حالة تسمح لي بهذا.

- ما الذى حدث؟

ثم يتوتّر صوتها وهي تقول:

- هل عدتَ لحالتك السابقة أم ماذا؟

facebook.com/the.Boooks

- لا أعرف.

- إنها هي ...أليس كذلك؟

صمت تام من ناحيتي، جعلها تتأكد من شكوكها:

- حسنًا ..كما تشاء.

ثم تُنهي المكالمة فجأة.

أحدق في التليفون ببلاهة، شاعرًا بالغباء ..أستدرك نفسي وأتصل بها..تتأخّر في الرد عليَّ لزوم إتقان «الزعل» ..ثم تفتح المكالمة ولا تردّ، منتظرة مني أن أبدأ الحديث.

- بحبِك.

أقولها مبتلعًا الغصّة المُرّة الثقيلة التي تكوّنت في حلقي.

صمت تام من الناحية الأخرى، وإن دلت الخشخشة الناتجة عن صوت زفيرها المنتقل عبر السماعة على تهدّج أنفاسها.

- لماذا الغضب؟ أنتِ تعلمين أني أحبّك.

- كلا .. أنت تحبّها هي.

- هي قصة من الماضي وانتهت من زمن بعيد، هي الآن سيّدة متزوّجة، هل لي بطلب صغير يا لمياء؟

يبدأ صوتها في استعادة دلاله وإثارته المتعمّدة وهي ترد ببطء:

facebook.com/the.Boooks

- مُرنى يا سيدي.

- فلننس هذا الموضوع ..ولا نأتي على ذكره مرة أخرى... فصدري يضيق كلما تذكرتُ تلك الأحداث المؤسفة، وأنتِ بالتأكيد لا تريدين إيذائي بذكرها كل فترة.

- حاضر.

أطمئن إلى استجابتها، وأضحك قائلًا:

- كم أعشق كونك مطيعة.

تردّ بدلال أكبر وبهمس مبالغ فيه:

- لا تطمئن إلى هذا كثيرًا.

نصمت لدقيقة، تتردّد فيها أصوات نبضات قلبينا عبر أثير العاطفة الممتدّ من سماعة هاتفي لسماعة هاتفها.

لم لا أقول إنه الحب؟

هو شعور جميل فقط ...لا شيء غير هذا ..إذن ليس حبًا!

ربما يكون انجذابا تلقائيًا وطبيعيًا بين الذكر والأنثى ..كأن تلتصق بك الفتاة التي تجاور مقعدك في وسيلة المواصلات، فتشعر بنبضات قلبك تتزايد..هذا كل شيء.

هل تعتقد هذا؟

بل أنا واثق من ذلك.

facebook.com/the.Boooks

أنت إما كاذب وإما منافق إذن.

- أين ذهبت؟

يقطع صوتها الناعس حديثي الداخلي، فأردّ بصوت خشن من طول الصمت:

- أنا هنا ... أسمع صوتك.

- لكني لم أكن أتكلم!

- أسمع صوت صمتك إذن ...وهو معبُر أكثر من كلامك نفسه.

تضحك بشدة قائلة:

- حقًا؟

- نعم ...حقًا.

- وبماذا يخبرك صوت صمتي؟

- يخبرني بكل ما لا يستطع لسانك قوله ..يخبرني بكل شاردة من مشاعرك..يخبرني برسائل قلبك ...يخبرني بمدى صدق نبضاته.

تصدر منها زفرة عميقة، مصحوبة بآهة واهنة، دلّت على انتشائها من كلامي، ثم همست بحب:

- كم أعشقك عندما تقول مثل هذا الكلام.

تصمت هنيهة ثم تقول بلهفة:

- أريد أن أراكَ الآن.

facebook.com/the.Boooks

- الآن؟!

أرد بدهشة ..فتهمس بشبه رجاء:

- أجل الآن .. عندي مفاجأة لك.

- حسنًا ..مكاننا المعتاد إذن.

بعد نصف ساعة، كنت واقفًا منتظرًا إياها عند مدخل الكافتيريا المطلّة على النيل ...وصلت ْمتأخرة كعادتها.

تقترب مني وهى تبتسم ابتسامتها الواسعة ...ثم وبوجه أحمر من أثر الشمس الملتهبة، مدّت يدها، وتأبّطت ذراعي لأول مرة منذ بدأنا لقاءاتنا الغرامية هذه.

نظرتُ في عمق عينيها للحظات، ثم مددتُ يدي، وقرّبت جسدها من جسدي، وجعلتها تميل برأسها على كتفي، بينما صورة أخرى مشابهة لتلك تطرق ذهني بقوة.

استجابت لحركتي المفاجئة بمنتهى الليونة والسعادة، واستقر رأسها على كتفي بارتياح، ورفعت إليَّ عينين متسائلتين، تشيع فيهما شبه ضحكة، فقلت سريعًا بابتسامة متعثّرة تداري ارتباكي:

- أنا أريدك بجانبي هكذا.

ثم صمتُ للحظة، أضفت بعدها كلمتين شاردتين، لم أدرك رسالتهما المستترة إلا بعد أن خرجتا من فمي بالفعل:

facebook.com/the.Boooks

- طول العمر.

اقشعرّ جسدها كله، حتى إنني شعرت بذبذباته الملاصقة لجسدي، وهتفت بفرح حقيقي:

- هل تعني هذا حقًا؟

كان السيف قد سبق العذل، فلم أجد بُدًا من إكمال جملتي:

- وهل عهدتني أمزح في مثل هذه الأمور؟

انفلتت من يدي فجأة، والتفتت واحتضنتني مرة واحدة، هكذا فجأة، ونحن أمام مدخل الكافتيريا!

كانت ليونة جسدها الملتصق بجسدي تمامًا تلعب على أعصابي بقوة، وأسهم شلل مؤقت في أطرافي -بسبب المفاجأة- في انعدام ردود أفعالي تمامًا!

تخلّصت من جمود ذهني، ودفعتها بعيدًا عني برفق، وأنا أرمي عينيّ في كل الاتجاهات، خوفًا من أن يكون أحد قد رآنا.

تنحنحتُ بحرج مغالبًا إحساسي بغرابة الموقف، ومتعجبا من شعور بالسعادة غمرني، نظرتُ في عينيها وابتسمتُ، ردًا على ابتسامتها الواسعة، والفرحة المطلّة من عينيها، وهمستْ قائلة:

- معك لا أهتم بأي شيء آخر في هذا الكون.

جذبتني من يدي وهي تضحك قائلة:

facebook.com/the.Boooks

- هل سنظل واقفين هنا للأبد؟

وقادتني من يدي كالمسحور إلى أبعد منضدة في الكافتيريا، وأكثرها عزلة عن أعين الناس ...كانت المنضدة قابعة تحت ظل شجرة وارفة الأغصان متدلية الفروع، كثيفتها، مما جعلنا نُحني رؤوسنا لنتمكن من الاقتراب من المنضدة....كانت وكأنها كهفنا الخاص.

اقتربت بمقعدها، والتصقت بي كعادتها، ثم قالت بدلال:

- والآن ..مفاجأتك التي وعدتك بها.

ثم أشارت لي بسبابتها أن أقترب منها، فملت برأسي ناحيتها وأنا أشعر بقوة نبضات قلبي المتزايدة..

فمالت ناحيتي فجأة، وطبعت على وجنتي قبلة انتشرت ذبذباتها من خدي إلى جسدي كله، فتكهرب، بقشعريرة دافئة، قفزت بنبض قلبي إلى أقصى ما يمكن له الدق!

اعتدلت وحدّقت فيها بذهول، بينما تهمس بصوتها ذي البحّة المثيرة:

- هذه قبلتي لك يا حبيبي.

ثم مالت نحو أذني، وهمست:

- وقت قبلتك أنت لي.

شعرت بازدياد حرارة جسدي، كالراقد على خزان من الحديد المصهور..شعرت

facebook.com/the.Boooks

بأن جسدي يتصرّف من تلقاء نفسه، متمردًا على كل أوامري العقلية.
ملت على خدها ببطء شديد ..وعند مرور شفتي بجوار شفتيها، صدرت عنها زفرة دافئة، قضت على كل ما تبقّى من مقاومتي، فانحرفت تلقائيًا وملت بوجهي كله على شفتيها، أعتصرهما، ممتصًا منهما عطرهما الجذّاب.
فوجئت بتجاوبها التام معي، حيث انفرجت شفتاها لاستقبال شفتي بمجرد ميلي نحوهما، وبادلتني قبلتي بقبلة أشد منها سخونة!
لم يكن هذا ما توقعته منها ...كنت أتوقع غضبًا ...كنت أنتظر دفعها لي بعيدًا عنها ..تساءلت لحظيًا إن كانت قد تعمّدت إثارتي ببطء من البداية، لأُقدم على تقبيلها.
هل كانت تنفخ في جذوة النار المشتعلة لتزيدها توهجًا وهياجًا؟
صرفت هذا الخاطر عن ذهني سريعًا ...واستسلمت بارتياح لتلك الانفعالات والمشاعر الغريبة التي تجتاح جسدي، وتغزو روحي، لأول مرّة.
انفصل التحامنا أخيرًا، وأنا ألهث بعنف، شاعرًا بطاقات عجيبة تسري بدمي، وراغبًا في المزيد من إكسير الحياة هذا.
كان وجهها أحمر تمامًا، وبعينيها البنّيتين توهج ولمعان قوي ..كانت تلهث بشدة، فأغمضت عينيها، وقبضت بيدها المرتعشة على فخذها بقوة، محاولة تمالك نفسها، قبل أن تهمس بحروف مضطربة:

facebook.com/the.Boooks

- لا أستطيع تصديق واستيعاب ما حدث للتو.

- أنا أحبك.

همست بهاتين الكلمتين بحرارة عجيبة، استغربتُها أنا نفسي بادئ الأمر...حرارة تشعّ بروح الصدق ...وجعلتها تفتح عينيها وتحدّق فيّ بدهشة، قبل أن تبتسم ابتسامتها الواسعة، وتقول بسعادة، وهي تهز قدميها للأمام والخلف كالأطفال:

- حقًا؟!

أجل ...حقًا.

هل سأنسى حبى القديم؟

هل قرّر قلبي تجاهله؟

أم أن عقلي قرر استكمال حياته؟

أم أن قلب الإنسان من الممكن أن يطوي بداخله حبًا لأكثر من شخص؟

أم أنها فقط حرارة اللحظة ...رد فعل ناتج عن نشوة االقُبلة الأولى؟

يا لبؤسي، هل حبّي للمياء تطبيق لنظرية "أن تضيء شمعة صغيرة خيرٌ من أن تقضى عمرك تلعن الظلام"؟

وهل حبّي للمياء كالشمعة الصغيرة؟

يالبؤسي، أصبحت كالغريق الذى يريد أن يتعلّق بأي قشّة طافية للنجاة من

facebook.com/the.Boooks

محنته.

لو أني فقط أفقد الذاكرة من الأساس.

لو أني أفقد الإحساس.

لو .....

***

facebook.com/the.Boooks

قال جدّي:

“لا يعجبني فيك أنك بلا عزيمة على الإطلاق، بلا أمل في الحياة، بلا طموح، تجّنب هذا لكي لا تصبح إنسانًا متبلدًا، إنسانًا ميتًا”.

***

facebook.com/the.Boooks

- أريدك في كلمة.

قالها علي بصوت حازم أقرب إلى الصرامة.

نظرت له بعيون شبه غائمة ..كنت قد أنهيت للتو مكالمتي مع لمياء، ووقفت لدقيقتين ممسكًا بالهاتف، ومحدقًا فيه بعيون لا ترى ....نبضات قلبي المتسابقة تنبئني بأنه ربما يمكنني نسيان أو تعويض حبّي الأول ..هل هذا ممكن حقًا؟

كنا نتحدث أنا ولمياء كعشيقين قديمين الآن ..نرسم بسذاجة العشاق المعتادة أحلام الزواج، ونكتب أسماء الأطفال ... قرأنا الفاتحة أنا وهى سرًا في مكان لقائنا، فأصبحنا نتصرف كخطيبين ..الأسبوع الماضي أشارت إلى واجهة أحد المحال التجارية، وأبدت إعجابها بمفارش مطرّزة، ثم أخبرتني أنها ستشتريها من الآن تحسّبًا لنفادها، وتحتفظ بها كي تزيّن قطع الأثاث في بيتنا، عش حبنا كما كانت تسميه، أعتقد أننا قد وصلنا لنقطة اللاعودة، أعتقد.

- سمعتني؟

أنتبه من أحلام يقظتي على صوت علي مرة أخرى.

كان يصرخ في وجهي هذه المرة.

- علي ..مزاجي رائق الآن فلا تعكّره أرجوك.

ضربني في صدري بقوة، وهو يسبّني صارخًا:

facebook.com/the.Boooks

- أنت مجنون، تدمّر نفسك بنفسك، أفق من أحلامك العقيمة هذه..الامتحانات النهائية بعد أقل من شهر..وأنت تعلم مدى صعوبة امتحانات السنة الخامسة ..لا تكن عاطفيًا أكثر من اللازم وأفق من الوهم الذى تعيشه..أنا لن أتركك تضيع نفسك هكذا بسبب قصة حب فاشلة ومن طرف واحد...وما تلاها من محاولاتك الفاشلة أيضًا لتعويض هذا الحب.

استفزّني كلامه، فقلت بصوت أجش:

- علي ..إياك أن تأتي على ذكر تلك النقطة مرة أخرى.

احمرّ وجهه، وخفض صوته قائلًا برجاء.

- لماذا يا صاحبي ..لماذا تفعل بنفسك هذا؟ ..لماذا تدمر مستقبلك بيدك...لسنا في وضع يسمح لنا بالحب والانطلاق الذى ترغب فيه وتعيشه، أنت تعلم أني أخاف عليك ..فلماذا تدفع عنك يدي الممدودة لمساعدتك.

أزمجر قائلًا:

- لا أحتاج المساعدة من أحد ..أتفهم؟

- بل تحتاج، صدقني ..هل تعتقد أنّه يسرّني أن أرى مستواك العلمي بهذا الانحدار؟! هل تعتقد أنه يسرّني أن أراك تتحوّل نفسيًا من سيء لأسوأ؟

- خطأ يا عليّ ...أنا لم أكن بتلك الحالة النفسية الممتازة من قبل.

- هذا ما توهم به نفسك يا صديقي .. أتحاول أن تقنعني بأنك نسيتها؟!

facebook.com/the.Boooks

حسنًا، سأثبت لك خطأ زعمك ..أخبرني لم تتعمد الوجود بالقرب من بيتها حتى الآن، رغم مرور ما يقرب من السنتين على زواجها؟

لِم تدير وجهك عنها ثم تسترق إليها نظرات طويلة مفضوحة، كلما جاءت لتقابل صديقاتها من زميلاتنا؟

لم توقفتَ عن كتابة الشعر؟ قل لي لماذا؟

تصيب أسهم كلماته روحي مباشرة، ويتردّد صداها في ممرّات أذني..أنظر بين قدميّ شاعرًا باندفاع الدماء في رأسي بقوة!

أقول بصوت مبحوح، ونبرة أقرب إلى البكاء:

- اتركني في حالي أرجوك يا عليّ، لم يمرّ أحد بما مررتُ به!

يتأثر، فيرقّ صوته ويقول:

- كلنا مررنا بتجارب حب فاشلة يا صديقي، ولكنك أنت العاطفي أكثر من اللازم!

أشعر بدمعتين تنزلقان من مقلتيّ، وتزحفان ببطء على وجنتيّ، وأنا أرد بصوت أكثر حرارة:

- كلا يا علي ..لم يمرّ أحد بما مررتَ به .. ما تجربة حبك الفاشلة؟!

أليست هي زميلتنا التي همت بحبها سنتين كاملتين، ثم قررت صرف النظر عن الموضوع برمّته، عندما لم تجد منها الاستجابة التي انتظرتها.

facebook.com/the.Boooks

ما رؤيتك للحب يا علي؟

أليس أول ما تبحث عنه عيناك هو الأثداء الممتلئة والأرداف الملفوفة؟!

كلا يا علي، لا تقارن ما حدث ويحدث لكم بما حدث لي ..فأنتم لا دراية لكم بما مررتُ به، فلا تلومونني أرجوكم ..لا تلمني يا علي.

أُنهي كلامي وأنصرف عنه، تاركًا إياه مذهولًا ومتحيّرًا من رد فعلى، أعلم أنه يخاف عليَّ ويحبّني ..لكني أرفض الشفقة من أحد.

أجل يا علي ..ربما تكونون قد مررتم بتجارب حب سابقة ..ولكن أخبرني، إلى أي مدى وصلت درجة هذا الحب؟

هل إلى الحد الذى يجعل حواسك تنتبه تحفزًا ، وروحك ترتعش توقًا عند ذكر اسم من تحبّها ، أو حتى اسم يشابه اسمها؟

هل إلى الحد الذى يجعلك تحوم حول كل الأماكن المتوقع وجودها بها ، متمنيًا لعينيك لمحة واحدة منها ...حتى لو كانت من ظهرها؟

أم إلى الحد الذى يجعلك تؤرّخ كل أحداث حياتك بمواقفها معك، بلحظات الفرح الحقيقية التي حظيت بها في حياتك؟

ما لم تعرفه يا علي، أنه وبينما ينهال عليَّ المهاجمون بضرباتهم يوم الحادث، كنت أريد أن أُنشب أسناني في رقبة الفتى الرقيع الذى استغلّ الموقف، وأمسكها من كتفيها ، ليُبعدها عني .. لم أهتم بضرباتهم وإصاباتي وقتها

facebook.com/the.Boooks

..كل ما اهتممت به كان ...هي.

فهل يا ترى مررتَ بمثل هذه المواقف يا علي؟!

إن كنت قد مررتَ بمثلها ثم تجاوزتها ، فيمكنك اعتباري عاطفيًا أكثر من اللازم

.. وإن لم تكن يا علي ..

فلا تلمني.

ولا تقارن.

أرجوك.

***

facebook.com/the.Boooks

- بابا؟!

كان هذا صوت ابنتي المبحوح.

كان علي قد نهض من رقاده، وخرج من المستشفى بعد فترة نقاهته..مع تنبيهات حازمة من طبيبه المعالج بضرورة الراحة، وعدم بذل أي نشاط أو مجهود عنيف، كي لا يشتد به الألم.

أعتقد أن حالته قد تحسّنت كثيرًا ، وإن كانت تنتابه لحظات من فقدان التركيز والدوار أحيانا ، فترتعش أطرافه وتغيم عيناه كالحالم...لكن أعتقد أنها ستختفي مع الوقت.

نظرت لابنتي مستفهمًا فقالت:

- اليوم انتظم عليّ في الجامعة من جديد..ومنذ عودته وهو يجلس في غرفته ويرفض الحديث معي... فكرت أنك الوحيد الذي يمكنه معرفة ما جرى له..أنت تعلم أنه يحبّك كثيرًا .

يتكرمش وجهي في قلق متسائل ...أنهض من مقعدي بثقل سنواتي الخمس والسبعين المتشبثة بعنقي.

أتجه إلى غرفته ..أطرق الباب ..لا يرد .. أطرق الباب مرة أخرى:

- افتح يا علي.

facebook.com/the.Boooks

لحظات ثقيلة، وينفتح الباب مصدرًا صريره المعتاد، أدخل الغرفة، فيغلق الباب ورائي في وجه أمّه القلق المترقب.

أجلس على المقعد المواجه لمكتبه، وألتفت إليه متسائلًا:

- ماذا حدث؟

يجلس عليّ على طرف فراشه، ويقول بصوت خاوٍ:

- لا شيء.

- ومنذ متى تُخفى عني شيئًا ؟

أقولها بحزم مصحوب بلمحة لوم.

يرتعش جفناه لحظات، وتحمرّ أذناه، كعادته التي ورثها عني، يهمس بصوت فيه أثر بكاء:

- مريم.

- مالها؟

- ذهبتُ إلى كلّيتها اليوم باحثًا عنها ...وعندما رأتني تظاهرت بأنها لم تلمحني ..فوقفت أمامها مباشرة وأنا أبتسم قائلًا: "اشتقتُ إليكِ».

احمرّ وجهها بشدة، وصاحت في قائلة إنني أبالغ في فهم العلاقة بيننا، وإنه لا يصح أن أُحرجها هكذا أمام زملائها وأمام الناس ...ثم قالت ..

ارتجف صوته قليلًا عند هذه النقطة، وابتلع ريقه بصوت مسموع، قبل أن يقول

facebook.com/the.Boooks

بصوت حاول أن يجعله متماسكًا:

- قالت ...إنها لا تريد أن تراني مرة أخرى.

رفع عينيه المحمرّتين، ونظر إليّ بلوعة، ثم لانت ملامحه حتى أوشكت على الامتزاج ببعضها، وهو يهمس بيأس:

- تركتني يا جدّي ..أميرتي تركتني.

صمت تام من ناحيتي ..عينان مذهولتان ..عقل تائه بين الأحداث والوقائع..

الزمن يعيد دائرته مرة أخرى؟ و... كيف .. مستحيل ..و»لا أريد أن أراك مرة أخرى».

لماذا؟

***

facebook.com/the.Boooks

- لماذا أنت صامت اليوم؟ لم أعهدك هكذا! ماذا حدث؟

هكذا قالت لمياء بصوت قلق ..لم أكن شاردًا هذه المرة ..كنت فقط أحدّق بها ولا أجد في نفسي القوة أو الرغبة لنطق الكلمات التي أعددتها. أغمغم بصوت منخفض، يزيد من اضطرابها وقلقها:

- لا شيء.

تدور بذهني أحداث مشهد وقع منذ يومين، أعيشه مجددًا في كل لحظة منذ ساعتها، أتذكر كيف اقتحمت أختي الكبرى نورهان غرفتي متهللة الوجه، وهي تصيح:

- أسمعتَ بما حدث يا محظوظ؟

أنتفض من نومي مذعورًا، قائلًا بصوت ناعس:

- ماذا؟ ماذا حدث؟

غمغمت معتذرة:

- لم أكن أعلم أنك نائم .. ما علينا ... هل سمعت الخبر؟

- أي خبر؟

- حبيبة القلب انفصلت عن زوجها.

- هه .....

facebook.com/the.Boooks

يتجمّد ذهني تمامًا ..تحاول تروس دماغي أن تدور ليستوعب الموقف ..فلا يستطيع، أحدق فيها مذهولًا لدقيقة كاملة، قبل أن تبدأ ابتسامة خجول مرتبكة تشق طريقها إلى فمي.

هل حقًا انفصلت عنه أم أنني أحلم؟ ولماذا وقع الانفصال؟

وهل من المفترض أن يسعدني هذا؟

وإن كان من المفترض أن يسعدني الخبر، فلم انقبض صدري بهذا الشكل؟

ثم .. ماذا عن لمياء؟

- اتصلتَ بي لتخبرني أن هناك أمرًا مهمًا تريد إبلاغي به.

ينتشلني صوت لمياء من دوّامات الذاكرة، أنظر إليها منتبهًا، ثم أحملق في قدمي مرتبكًا وعابثًا بأصابعي في ياقة قميصي .. أتردد مرة أخرى ..

أستجمع شجاعتي وأنظر إليها مجدّدًا ... أقول بصوت خرج عاليًا بصورة عفوية:

- لمياء .. أنتِ تعلمين جيدًا ظروف لقائنا ...تعلمين كم كنت بحالة يائسة وقتها .. ولا أنكر أنك أسهمتِ بشكل كبير في إخراجي من تلك الحالة...وأنا ممتن جدًا لما فعلته.

- لا أفهم ....

تقطع كلامي بجملتها المتشككة.

facebook.com/the.Boooks

- ما عنيته أنك كنتِ نِعمَ الصديقة لي .. ولكن .. وبعد مراجعة العديد من المواقف ..وجدت أن صداقتنا شيء جميل ...لكن ...

أبتلع ريقي بصوت مسموع ثم أكمل:

- لكن.. ما بيننا ليس حبًا.

- ماذا؟

تقولها مقطّبة حاجبيها، رغم وضوح كلامي.

- أعني أن ظهورك في حياتي كان حبل الإنقاذ لغريق مثلي ..لكن ..

تقاطعني قائلة وهي تهزّ ساقيها بعصبية:

- إذن أنت لا تحُبنى الآن ... أم أنك لم تحُبنى من البداية أصلًا؟!

أصمت تمامًا، فتقسو عيناها عليّ، وتصرخ بحدّة:

- إنها هي .. أليس كذلك؟

كانت نظراتي الموجّهة للأرض أبلغ من أي رد.

- لكنها متزوّجة!

- انفصلت عن زوجها.

أردّ على لمياء، مستعيدًا تفاصيل المشهد مع أختي مرة أخرى، حين سألتها:

- لماذا؟ لماذا انفصلت عنه؟

انطفأت ابتسامة نورهان، وكأنها بوغتت بالسؤال، رغم أنه كان سؤالًا بديهيًا..

facebook.com/the.Boooks

نظرت إلى نقطة ثابتة على الحائط، وقالت بصوت جاف:

- سمعت أنها .. سمعت أنها عاقر لا تلد.

كانت تلك هي المرة الثانية في أقل من خمس دقائق التي يتجمّد فيها ذهني تماما عاجزا عن الاستيعاب ... ماذا؟ .. لكنني ظننت ...

لا أدري، هل من المفترض أن أكون سعيدًا بتغيّر ظروفها، أم حزينًا لمثل هذا الخبر، وإن تزوّجتها، فهل أحكم على نفسي بعدم الإنجاب؟!

أنتبه مرة أخرى على صوت نحيب مكتوم، ولمياء تغطّي عينيها اللتين دائما ما أحببت تأمّل بنيهما المتوهج.

تعتصر صدري قبضة ألم وشفقة تجاهها، لم أعتد أن أجرح مشاعر أي إنسان.. وها أنا ذا الآن أحرق مشاعر الإنسانة الوحيدة التي انتشلتني من وحل الاكتئاب .. لكن ... لا مفرّ من هذا!

أخيرًا جاءتني الفرصة التي انتظرتها طوال عمري ... أخيرًا سأحرّر حلمًا ظل رهن الاعتقال مدّة سنتين .. أخيرًا سأروي جفاف روحي بكلمة حقيقية أهمس بها في أذنيها.

أحبك.

ألتفت للمياء وأقول مغالبًا شعوري بالأسى:

- لمياء .. صدّقيني أنتِ فتاة رائعة ... لكن ... أنا .. أنا آسف ... أنا..

facebook.com/the.Boooks

- أنت حقير.

تصرخ بها فجأة من بين دموعها، فتلتفت إلينا بعض العيون.

أضع يدي على يدها قائلًا بصوت حاولت أن يكون رقيقًا:

- معكِ كل الحق .. ربما أنا كذلك فعلًا ...لكني لا أستطيع .. لا أستطيع أن أنافق في علاقة حب .. لا أستطيع أن أستمرّ بعلاقتنا، بينما قلبي معلّق بواحدة أخرى.

تخطف يدها من تحت أصابعي بغتة، وتجذب حقيبتها بعنف، وهي تنهض قائلة بشراسة لأول مرة:

- حسبي الله ونعم الوكيل فيها.. يا رب تموت هذه التي تريد خطفك مني.

- لا .. لا ..

أصرخ بهذه الجملة فجأة، وبارتيا ع شديد، فزعًا من لهجتها وعنف دعائها، فتحدّق بي لثوانٍ صامتة، قبل أن تقول بسخرية:

- ألم أقل لك إنك حقير.

تبتعد منصرفة، وإن دلّ تعثّر خطواتها وانحناء رأسها على انخراطها في البكاء مرة أخرى.

هل أنا فعلًا حقير؟!

هل كان من الواجب أن أستمر في علاقتي بها، متناسيًا مركز روحي الذي

facebook.com/the.Boooks

تمتلكه حبيبتي؟!

لمياء -كما قلتُ- فتاة رائعة، لكنها ليست أميرتي المهيمنة على عرش قلبي، تفريقي بينهما كتفريق محبّ للفنون بين أصوات مغنيي الجيل الجديد، وصوت أم كلثوم مثلًا .. كلاهما يُسمع له ويُطرب به...لكن ...عند التفضيل والاختيار، فدائمًا ما يختار الأصل على الأصوات الأخرى المحسّنة بوسائل تقنية.

إذا ما صدح صوت أم كلثوم فإنّه يطغى على كل ما يصاحبه من موسيقى، ربما لم يكن ما بيني وبين لمياء بدايات حب حتى!

ربما كانت الرغبة في الإحساس بشعور الحب من طرفين، هي التي جعلتني أنجذب لأول فتاة أبدت اهتمامًا بي، وأقع في شباك حب وهمي..رغبة عقلية .. إرضاء لنفسي دون الاهتمام بإشباع قلبي!

هل أُبرّر لنفسي فعلتي؟

هل هي بالفعل حقارة مني؟

لا يهم، فلتطاردني كل الصفات الذميمة، ولتلحقني كل اللعنات القاتلة، مادام أمل الفوز بها يُظلّني...فلا شيء آخر يهم!

لا شيء.

أنهض من مقعدي، وأتحرّك خارجًا من الكافتيريا .. ألاحظ -بطرف عيني-

facebook.com/the.Boooks

شابًا يقبّل فتاة بمعزل عن الجميع، أشيح بوجهي عنهما ، وأتأفّف قائلًا بغيظ:

- قلّة أدب!

***

facebook.com/the.Boooks

-02-

أميرتي

يا من عرفت بحبك للمشاعر معنى

ومضات عشقك تنيرُ الطريق

ترقى بروحي من سراديبي إلى أماكن أسمى

ملكة الأزمان أنتِ..

عرشك محفوظ من زمن سحيق.

***

facebook.com/the.Boooks

- هل سمعتي بما حدث لحبيب القلب؟

- ماذا حدث له؟

- سمعتُ شائعة تقول إنه يهلوس!

- يهلوس؟!

***

facebook.com/the.Boooks

- أنت واثق مما تريد؟

قالتها أمي بصوت حزين، فكررت للمرة الخامسة بحزم:

- أجل يا أمي.

أستغلّ صمتها وأكُمل كلامي:

- سبق أن أخبرتكِ أكثر من مرة أنني لن أستغني عنها، أنا أحبها، موضوع الأطفال هذا بيد الله سبحانه وتعالى، ربما كان العيب في زوجها وليس فيها، إن أراد لنا الله فسننجب، وإن لم يرد فتلك مشيئته، ولا اعتراض عليها.

أقول كلماتي بصوت عالٍ، وكأنني أحاول إقناع نفسي وليس إقناع أمي!

تهزّ أمي رأسها بيأس مستسلمة، ثم تخرج من غرفتي، تاركة إياي لأستكمل ارتداء حلّتي السوداء.

تلاشت كل مخاوفي، وحلّ محلّها شعور طاغٍ بالفرحة، أصبحت روحي خفيفة بعد أن تحرّرت من قيود الهم والقلق، أشعر بطاقات البهجة تشق طريقها في كل نواحي جسدي.

أنظر في المرآة متأملا شكلي النهائي، وأبتسم ابتسامة واسعة، تظل معلّقة على وجهي حتى وصولي لبيتها.. شقة فاخرة في منطقة متوسطة المستوى، يستقبلنا أبوها معلّقًا على شفتيه ابتسامة جامدة، يصحبنا إلى المقاعد الوثيرة في الصالون.

facebook.com/the.Boooks

وبعد المقدّمات والترحيب، شرع أبي في الحديث الجدّي مع الرجل:

- جئنا اليوم لنطلب يد ابنتكم.

أُهمِل الحديث الدائر، وأعلّق نظري بالباب، متمنّيا ومترقّبا دخولها علينا.

- هو شاب ممتاز، ولكني أخشى أن يؤثّر ما حدث من قبل على قرارها.

أنتبه على صوت أبيها وهو يلقي تلك الكلمات بحذر شديد، مُحافظًا على ابتسامته المرتبكة الجامدة، فأتدخل قائلا بسرعة:

- ما فات مات يا عمي، وأظن أنه لا اعتذار أبلغ من الموقف الذي أنا فيه حاليا ... فهذا دليل على حسن نواياي من البداية.

تحوّلت ابتسامة الرجل من الجمود للارتياح، ثم قال:

- على بركة الله .. سأستدعي العروس لنأخذ رأيها في...

قبل أن يتمّ جملته، دخل أخوها محمد علينا كالإعصار، ثبّت نظره عليَّ قليلا، ثم أشاح بوجهه بحدة، وهو يقول لأبيه بصوت حانق:

- ما هذا يا أبي؟! كيف تسمح له بمثل هذا الطلب بعدما صدر منه، ثم إنه من المستحيل أن توافق أختي عليه!

ينظر له أبوه نظرة قاسية، ويقول بصرامة:

- تهذبّ يا محمد، احترم وجود ضيوف بمنزلنا، هذا ليس من شيم الرجال أبدًا.

يحمرّ وجه محمد غضبًا، ثم يلقي بجسده على أحد المقاعد، وهو يتجنّب النظر

facebook.com/the.Boooks

إلينا، مثبتا عينيه على مروحة السقف، وعلى فمه تعبير اشمئزاز.

تتململ أمي في جلستها، وتتبادل مع أبي نظرة معينة .. ثم ينظران إليَّ بضيق لأني وضعتهما في هذا الموقف السخيف.

أحاول أن أتجاوز ما حدث، فأقول لأبيها المرتبك بابتسامة آمِلة:

- أين هي؟ ألم تقل إنك ستستدعيها؟

يتلقّى رسالتي الخفية على الفور، فينتفض من مقعده قائلا:

- أجل ... أجل ... سأذهب لأستدعيها حالًا.

يخرج من الحجرة مسرعًا، كأنما تطارده شياطين الجحيم.

أضغط على فخذ أبي برفق، مطمئنًا إياه، ثم أنتقل لأجلس بجوار محمد، الذي كان يتصرف كما لو كان جالسًا برفقة قطع الأثاث!

أقول مؤنبًا بصوت حاولت جعله ودودًا:

- هكذا يا محمد؟! وأنا الذي أعتبرك واحدًا من أعزّ وأقدم أصدقائي؟!

ينظر لي بحدة قائلًا:

- تجرح أختي، وتتسبب في إهانتها أمام كل زملائها، ثم تريد مني أن أعتبرك صديقي، بل وأشجّعك على الزواج منها؟ أيعقل هذا؟ هل تعلم كمّية القيل والقال التي لاحقتها بسبب تصرفات المراهقين هذه!

- أنت تعلم أني مظلوم في هذا الموضوع، وأن كل المشكلة التي حدثت كانت

facebook.com/the.Boooks

بسبب شخص مريض نفسيًا، وقد حاولت الاعتذار كثيرًا، ولكن هي من رفضت الإصغاء.

يهمل ردّي، ويعود لتحديقه في السقف، فأعلّق نظري بباب الغرفة، على أمل انتهاء هذا الموقف المُحرج سريعًا.

دقائق ويدخل الأب، ثم تدلف هي وراءه، شبه ملتصقة به، كأنما تلتمس منه الحماية.

كانت ترتدي زيًّا عاديًا، وجهها خالٍ من المساحيق، عيناها حمراوان، تسير ببطء شديد كالمقيّدة إلى الأرض.

تسلّم على والديّ، ثم تجلس بعيدًا عني، دون أن ترفع وجهها لتراني حتى!

مدّت العزلة قضبانها بيننا، ليمر عليها قطار الصمت لعدة دقائق، قبل أن يتنحنح أبوها ويقول:

- هو هنا لخطبتك يا ابنتي .. فما رأيك؟

أضفى الأب على صوته بعض الرجاء، وكأنّه يريد منها القبول.

صمت تام من ناحيتها، يقول أبي:

- لا تدَعي ما فات يؤثر على قرارك الحالي يا ابنتي .. ولا تنسي أنك تعرفينه منذ كنتما طفلين صغيرين .. وتعرفين طباعه وأخلاقه جيّدًا.

أنظر لأبي بامتنان صامت، شاكرًا محاولته لمساعدتي.

facebook.com/the.Boooks

صمت مرة أخرى، تقطعه في النهاية قائلة بصوت مبحوح، ودون أن ترفع عينيها عن الأرض:

- هل من الممكن أن تتركونا وحدنا قليلا إذا سمحتم؟

يندهش أخوها وأبوها من طلبها، ثم يحسم الأخير الأمر، فينهض من مقعده قائلًا بصوت حاول جعله مرحًا:

- حسنًا .. لنترك العروسين وحدهما.

ثم قال مخاطبا والدي:

تفضّلا من هذا الاتجاه، فلنشرب الشاي في مكان آخر.

خرجوا جميعهم، بينما بقي محمد متجمدًا في مكانه للحظات، قبل أن ينهض بتثاقل، وعند الباب التفت ليرمي كلينا بنظرة طويلة لم أفهم معناها، قبل أن يخرج، يسود الغرفة صمتٌ تام بعد خروجهم جميعًا.

- لماذا؟

تقولها بصوت مرتجف دون أن تنظر إليَّ.

يا ربّي، حتّى وهي بهذا الوضع البائس، قمة في الجمال، يقشعرّ بدني لدى سماعي صوتها يخاطبني مرة أخرى ... يا اللهّ!

كم اشتاقت أذناي لسماع تلك النبرات مرة أخرى.

- لماذا تريد أن تتزوّجني؟

facebook.com/the.Boooks

أنتقل من مقعدي لأجلس بجانبها، مغالبًا ارتعاش ساقي .. ينتفض جسدها انتفاضة خفيفة لدى جلوسي جوارها .. تتزحزح مبتعدة عني قليلا.

- أنتِ تعرفين الإجابة مسبقًا.

ثم ومغالبًا ارتعاشة خفيفة بصوتي، أُكمل:

- .. يا .. يا سمو الأميرة.

تتوتّر جلستها، وتنظر إليَّ بذهول لدى سماعها هذا اللقب مجددًا.

يتسمّر كلانا بهذه الوضعية فترة، قبل أن تخفض عينيها مرة أخرى وتقول:

- كلا ... لا أعرف الإجابة.

لا مفرَّ إذن، إما أن أقولها الآن، وإما أن أصمت للأبد.

- لأني .. لأني أحبّك.

أقولها شاعرًا بارتجافة أطرافي وألم معدتي.

تطفو ابتسامة خفيفة على فمها، ثم تقول:

- بعد كل ما حدث، ألم تكرهني بعد أن ابتعدت عنك؟

ألم تكرهني بعد أن قلت لك إنني لا أريد أن أراك مرة أخرى؟

ألم تكرهني بعد أن سبّبت لك الأذى والإهانة؟

تطفو في ذهني مشاهد مما حدث من قبل، فينقبض صدري، ويصيبني بعض الضيق، أصرفه عني سريعًا، وأنا أقترب منها أكثر وأهمس لها:

facebook.com/the.Boooks

- لكي تدرك معنى الدفء، فلا بدّ أن تشعر بالبرد أولا، وأنا قد تجمّدت أطرافي في انتظارك يا أميرتي.

يحمرّ وجهها بشدة بعد كلماتي الهامسة، أنتهز الفرصة وأطرق على الحديد وهو ساخن:

- لنمحُ كل ما فات من أذهاننا، حان وقت الطلاء لإخفاء كل عيوب البناء.

يزداد توتّرها واحمرار وجهها، تقضم أظافرها في محاولة لإخفاء توتّرها، دون أن تنبس بأدنى كلمة، أُخرج ورقة مطوية من محفظتي، وأريها إياها قائلًا:

- هل تعلمين أنه بعد ما حدث، قررت اعتزال الشعر .. لم أكتب حرفًا واحدًا.

ثم آخذ نفسًا عميقًا، وأستطرد بصوت هادئ:

- وهذه الورقة، بها مقطع من قصيدة كنت أكتبها، وانتويت أن أهديكِ إياها بمجرد الانتهاء منها، لكي أفصح لك عن مشاعري تجاهك، لكن للأسف حدث الموقف الأليم قبل انتهائي منها .. ومنذ ذلك الحين لم أكمل كتابتها أبدًا، وأحتفظ بها في محفظتي بصفة مستمرة، أطمئن إلى وجودها كل يوم، وأتأملها بالساعات كلّما اشتدّت بي نوبات الاشتياق إليكِ، ألا يكفي هذا دليلًا على أنني أحببتك وأحبك وسأظل أحبك؟!

كانت تتأملني بذهول، ولا تنبس بكلمة، بينما كان قلبي يصرخ بخفقات متسارعة!

facebook.com/the.Boooks

- خذي الورقة، افتحيها واقرئي المقطع الموجود بها ، لتتأكّدي من صدق كلامي.

بيدٍ مرتعشة تتناول مني الورقة.

- اقرئيها بصوت عالٍ إذا سمحتِ.

تفتح الورقة وتبدأ في القراءة:

"بعيونها بحور الرقة
وبسمتها مليها العجب
غرست جدورها في قلبي
وردة بلون الدهب
مرّت دقايق صمت
وأنا واقف باستكانة
متنّح فيها ... وفاكر لما قالوا
الحلوة .. شبه اليمامة
يوم ما تضحك في وشّك
تقول على عقلك ... بالسلامة"

تُنهي آخر حروف القصيدة بصوت مرتعش.

facebook.com/the.Boooks

تترك يدها التي تحمل الورقة تسقط بجوارها .. كان وجهها الآن بلون ثمرة الرمّان من شدة احتقانه.

أنتفض فزعًا لدى رؤيتي الدموع الساخنة الغزيرة تنهمر على خدّيها .. لم أعمل حسابًا لهذا قطّ .. لم أتوقعه.

- ماذا حدث .. لماذا تبكين؟

ترفع يديها لتغطي بهما وجهها، تاركة الورقة تسقط على الأرض، وهي تقول بصوت باكٍ:

- لماذا؟ لماذا تفعل بي هذا؟ أرجوك، لست أنا نفس الفتاة التي عهدتها من قبل، لماذا ظهرتَ الآن؟ أرجوك، لا أستطيع..ارحمني أرجوك، لا أستطيع، إن كنت تحبّني حقا فارحل، لا أقدر، لا أقدر.

يتعالى صوت شهقاتها المتقطّعة، ونحيبها المتواصل تدريجيًا، بينما تستمر في ترديد "لا أقدر"، ينتبه أهلها وأهلي، ويندفعون داخل الغرفة وهم يحدّقون فيما يحدث مأخوذين، قبل أن يقول أخوها بعصبية:

- كنتُ أعلم هذا، لا خير يأتي من ورائك أبدًا، تظهر بحياتها لتكدّرها، ثم ترحل، هكذا أنت دائمًا!

يهرول الأب نحو ابنته، يضع يده على كتفها مربتًا، وهو ينظر إليَّ متسائلًا، فأبسط راحتي يدي بمعنى أنني لا أدري لماذا تبكي!

facebook.com/the.Boooks

- كنت أتحدث معها وفجأة..

يقاطعني صوتها وهي تقول دون أن تجفّف دموعها:

- آسفة يا جماعة .. لكني أرفض الزواج.

يسقط فكي في بلاهة، وأنا أنظر إليها بذهول، قبل أن أهمس برجاء ويأس:

- لماذا؟

تقف فجأة وتخرج من الغرفة بلا مقدمات، فيلحق بها أخوها، بينما يقف أبوها مرتبكًا، لا يدري ماذا يقول أو يفعل، تنطلق من فمه جُملٌ متعثرة:

- أنا آسف .. الإحراج .. تفضلوا اجلسوا..

يشكره أبي، ويستأذن في الانصراف رغم محاولات الأب اليائس.

أنهض من مكاني مثقلًا بالهمّ، وأنا الذي ظننت أني قد أحظى بالسعادة التي انتظرتها طويلا!

كان غباءً منّي، كان عليّ أن أعرف أن هذا هو حظي من الدنيا، أنا الذي تمتد بينه وبين ما يشتهي جدران الكآبة!

أنا من يرى الثمار يانعات متدليات من غصون البهجة، فلا يستطيع اقتطافها، لانغماس رجله في مستنقعات الهمّ ... فيكتفي بإشتهائها عن بُعد!

وفي طريقي لباب الشقة علّقت نظري بالاتجاه الذى انصرفت منه، بينما قبضة الألم تزيد من قوتها على صدري.

facebook.com/the.Boooks

وتعتصر.

***

facebook.com/the.Boooks

فتى وفتاة في أواخر المرحلة الابتدائية ... يلعبان مع مجموعة من أقرانهما..

فجأة ... يوقف الفتى الفتاة أمامه مباشرة .. يقترب بوجهه من وجهها.

يظل على هذا الوضع فترة قصيرة، حتّى تبتعد هي ضاحكة:

- ماذا تفعل؟

- أخذنا في درس العلوم أن الكائن الحي لا يستطيع الحياة دون أن يتنفّس الأكسجين، وعندما سألت المدرّسة عنه، قالت إنه أجمل شيء في الحياة..وبما أنك أجمل ما في الحياة، فقد خمّنت أن النفَس الذي تخرجينه هو الأكسجين... لذا كنت أتنفّسه.

تشتد قوة ضحكاتها ، وتقول:

- أنت مجنون ... لا بدّ أنك تشاهد المسلسلات التليفزيونية كثيرًا هذه الأيام.

يمد يده في جيبه، ويخرجها ببطء، مبتسمًا ابتسامة خجلي .. يفردها أمامها لترى عقدا من الريحان مستقرًا بها.

يستجمع شجاعته ثم يقول:

- هذا لكِ ... أحب رائحته جدًا ... احتفظي به دائمًا ، لتصبح رائحتك مثله.

تصمت دهشة، ثم تمدّ يدها الرقيقة لتلتقطه، وتقرّبه من أنفها قليلًا ، حتى تتسرّب رائحته داخل كيانها ، ثم تبسم ابتسامتها الرائعة، وتقول بسعادة:

facebook.com/the.Boooks

- حسناً.

تتسع ابتسامته هو الآخر، ويضحكان بسعادة حقيقية، ثم ينطلقان ليستكملا لعبهما مع الآخرين.

***

facebook.com/the.Boooks

طوال طريق العودة إلى المنزل، أظل صامتًا، شاردًا في الفراغ المحيط بي، أبي يقود السيارة بدلًا مني، خوفًا من وضعي الذي لا يسمح بأي مجهود أو تركيز!

تلقي عليّ أمي نظرات قلقة من مقعدها الأمامي، هي تعلم ما أصابني سابقًا من اكتئاب حاد، بسبب موقف مماثل، ألمح نظراتها الفزعة بعين خاملة.

تحاول أن تخفّف عني، تواسيني ببضع كلمات جوفاء لا تصيب هدفها.

- لا تشغل بالك بها يا حبيبي، سأزوّجك الأحلى والأجمل منها، سأزوّجك «ست ستها»، من هي لتفعل في نفسك كل هذا من أجلها، هي لا تهتم بك حتى ... فلمَ تهتم أنت؟!

تمرّ عباراتها عبر أذني بصوت يبدو بعيدًا جدًا .. ضعيفًا جدًا .. خافتًا، يتلاشى قبل إدراكي معناه.

تُنهي كلماتها، وتلتفت إلى أبي، وتقول كأنّها تطمئن نفسها لا تطمئنه هو:

- لا تقلق .. عندما نصل المنزل سأتصل بجدّه .. هو صديقه .. ويعرف كيف يهدئه، ويُرجعه لحالته الأولى.

ألم يساعده على تجاوز جزء كبير من مرحلة اكتئابه من قبل.

أجل هو جدّه مَن سيساعده بالتأكيد.. لا تقلق.

facebook.com/the.Boooks

نصل البيت .. أدخل غرفتي دون كلمة .. أوصد الباب على نفسي من الداخل .. أستلقي على سريري .. أنام.

facebook.com/the.Boooks

طرق علي باب الشقة .. يهرع الأب ليفتح .. يستقبل الطبيب .. واضح من مظهره أنه طبيب ... وواضح من مظهره أنه طبيب جيد أيضًا.

نظارة طبّية بإطارات سوداء كبيرة .. قميص أنيق ... حقيبة جلدية فاخرة، محفور عليها شعار إحدى شركات الأدوية العملاقة.

يبادر الأب بالكلام:

- شكرًا لمجيئك يا دكتور .. أنا أعلم أن مشاغلك كثيرة، وأنك لا ترى أي حالة خارج عيادتك الشخصية ... ولكن ....

يقاطع الطبيب الأب قائلًا:

- عيب عليك أن تقول مثل هذا الكلام، أنت صديق عزيز، وابنك هو ابني، أين هو؟

تتغيّر لهجة الأب من الترحيب للأسى، ويقول:

- في غرفته.

- خذني إليه إذا سمحت.

يصحبه إلى غرفة الفتى، يُلقي الطبيب نظرة على الشاب الجالس على فراشه، مربعًا ساقيه، وشاخصًا ببصره في الفرا غ.

ينتبه الفتى لدخول الطبيب، ويسلّط عليه نظرته المختلة، قبل أن يقول بهدوء

facebook.com/the.Boooks

مرحّب:

- أهلًا يا علي.

يُهمل الطبيب ما قاله الفتى، ويلتفت نحو الأب قائلًا:

- اتركني معه قليلًا .. إذا سمحت.

يخطو داخل الغرفة .. ثم يغلق الباب وراءه.

***

facebook.com/the.Boooks

صرخة لوعة تشق رداء الليل وفضاء غرفتي، لتنفجر عند طبلتي أذني، أنتفض من فراشي فزعًا، تتسع حدقتا عيني، لتستوعبا كمية الظلام المحيطة بي.

يبدأ عقلي في تحليل الموقف محاولًا إدراك كنهه.

لا زلت مرتديًا حُلّتي، قميصي غرق في عرقي والتصق بصدري.

صرخة أخرى تجعلني أفزع من مكاني مهرولًا نحو مصدر الصوت، بعد أن تأكّدت شكوكي ...أجل.

إنّه صوت أمي.

أقترب من غرفتها، فتصل إلى مسامعي أصوات البكاء والنحيب، أدخل الغرفة بقفزة واسعة، أجد أمي جاثية على ركبتيها على الأرض، تنتحب، تضرب بيديها على رأسها.

تقف أختي بجوارها باكية، مستندة إلى حائط الغرفة وشبه منهارة.. أبي جالس على فراشه مغالبًا دموعه، ومحاولًا أن يتمالك نفسه ... أحدّق فيهم بذهول متسائل.

ترفع أمي عينين محمرّتين، وتقول بهمس ذاهل، كأنها تحلم:

- جدّك ... جدّك.

تغلبها دموعها مرة أخرى، فتنوح:

facebook.com/the.Boooks

- صاحبك يا حبيبي.

يغالبني الدوار وترتعش ركبتاي .. أستند إلى باب الغرفة مرجّحًا فكرة أني أحلم، أحدّق في أمي منتظرًا مزيدًا من التفسير، لموقف لا يحتمل المزيد، كأنما يرفض عقلي الفكرة بكاملها ويدفعها بعيدًا بعنف!

- ما له يا ماما ؟

أصرخ بها بصوت مرتجف، فترفع رأسها مرة أخرى قائلة بتسليم:

- مات.

تتسع عيناي، وأنظر إلى أختي مستنجدًا بها بذهول غير مصدق .. تومئ برأسها مؤكدة من بين دموعها.

أحاول أن أتكلّم، فلا يخرج صوت من حلقي، هذا قبل أن ألاحظ أن صدري يكافح من أجل الهواء، وأن البقعة المظلمة أمام عيني تتسع مساحتها باستمرار، وكان آخر ما سمعته هو صرخة أمي الملتاعة..ثم.. الظلام.

***

facebook.com/the.Boooks

- بقول لك إيه؟

- نعم يا جدّي.

- حضِّر لنا كوبين من الشاي، وأحضر الطاولة لأغلبك عشرتين.

- تغلبني أنا؟ أنا من غلبك الدور السابق.

ضحكات متقطعة ثم:

- أنا من علّمها لك يا ولد.

***

facebook.com/the.Boooks

- أنا خائفة جدًا .. الولد سيضيع منّي.

- اهدئي قليلًا، لا شكّ أن الطبيب سيجد حلًا.

- هل أنت واثق من أنه طبيب جيد؟

- دكتور سامح من أكبر الأطباء النفسيين في مصر ... هو صديقي من أيام الجامعة أيضًا .. لا تقلقي ... سيقوم بالواجب.

يقطع كلامهما خروج الطبيب من غرفة الفتى، فيسأله الأب بلهفة:

- ما الأخبار يا دكتور .. ماذا به؟

- ابنكم يعاني الهلوسة السمعية .. ومع ربطها بإصابته بها بعد وفاة جدّه مباشرة، أرجّح أنها حالة من حالات فصام الشخصية.

تضع الأم يدها على فمها وهي تشهق:

- فصام؟!

يستكمل الطبيب كلامه كأنه لم يسمعها:

- هو أيضًا مصاب باضطراب في التركيز، مختلط بلمحات خاطفة من استعادته لتركيزه، ولكن هذه اللمحات قصيرة جدًا يصعب التواصل معه من خلالها.

تردّد قليلًا ثم قال:

facebook.com/the.Boooks

- لاحظت أنه لا يتوقف عن ترديد اسم علي، هل تعرفان من هو؟

انبرت الأم تقول بسرعة:

- أجل ... علي صديق ابني منذ أيام طفولتهما.

- سأحتاج لوجوده هنا إذن، اتصلوا به، فلربما هو الوحيد الذى يمكنه التواصل معه، هذا التشخيص المبدئي ليس كافيًا، ولا يمكنني العمل على أساسه، أحتاج أيضًا لنقله للمركز الطبي الخاص بي، حتّى يكون تحت مراقبتي طوال الوقت.

تشبثت الأمّ بذراع زوجها بخوف وهو تقول:

- ولكن ...

تدخّل الأب الذى ظل صامتًا طوال الفترة السابقة قائلًا بحزم:

- افعل ما بدا لك يا دكتور.

- ممتاز .. لا تقلقا .. سيكون على ما يرام قريبًا بإذن الله.

***

facebook.com/the.Boooks

مركز طبّي عملاق، اللون الأبيض يسيطر على كل شيء فيه.

غرفة رقم سبعة .. سرير كبير بملاءة بيضاء، يجلس عليها الشاب مربعًا ساقيه، ومتخذًا نفس الوضعية التي كان عليها في غرفته.

بالخارج، وعبر زجاج شفاف من جهة واحدة، يراقب الطبيب ردود أفعاله بدقّة .. بجانبه يقف الأب مُسندًا الأم الموشكة على الإغماء بذراعه.

دقائق قصيرة وتأتي ممرضة، تهمس للطبيب بكلمات خافتة، يومئ بعدها برأسه .. قبل أن يلتفت للأب قائلًا:

- ها قد وصل علي صديق ابنكم.

ترفع الأم وجها يحمل لمحة أمل، بينما يشير الطبيب بيده للممرضة أن تدخله.

يدخل علي .. يتلفت حوله حتى يراهم .. يقترب منهم بسرعة شبه مهرول، القلق يكسو وجهه بالكامل ... بعينيه احمرار طفيف وإرهاق واضح .. ينظر عبر الزجاج الشفاف للشاب الذاهل عن العالم، قبل أن يلتفت نحو الطبيب بقلق، متأهبًا لاستقبال كلماته.

- قل لي يا علي ... ما مدى صداقتك به؟

- نحن أصدقاء منذ زمن بعيد جدًا يا دكتور، لم نفترق منذ التقينا ، كلٌ منا مستودع أسرار الثاني.

يرد على بصوت متوتر فتبدو علامات الرضا على وجه الدكتور سامح وهو

facebook.com/the.Boooks

يقول:

- عظيم .. عظيم .. هل تعلم أنه لم يتوقف عن ترديد اسمك، منذ إصابته بتلك الحالة؟

تعلو الدهشة وجه علي، قبل أن يغمغم:

- حقًا؟!

- أجل، واضح أنه يستغيث بك، أو يعلم أنك الوحيد الذي تستطيع مساعدته، لذا ربما تكون أنت الوحيد الذى يمكنه التواصل معه، سندعك الآن تدخل إليه وتحدثه بمفردك، ربما نحظى بأي معلومة جديدة منه.

- سأفعل أقصى ما بوسعي.

- ممتاز.

***

facebook.com/the.Boooks

يفتح علي باب الغرفة متوجّسًا ..يقترب بحذر من الفراش الذي يتشبث به الشاب المحدق في الفراغ، يجلس على طرف الفراش ويقول بصوت قلق:

- ما لك يا بطل ... ماذا حدث؟

صمت تام من الناحية الأخرى .. لا رد.

- لماذا لا ترد عليَّ..أنا صديقك علي.

ببطء يلتفت الشاب نحو علي، وينظر إليه بعينين خابيتين.

- علي؟!

يقولها بصوت حالم.

يرد عليه علي بلهفة، فرحًا بتجاوبه:

- أجل ..أجل أنا علي صديقك .. هل تذكّرتني؟

- علي؟!

يكرر الشاب كلمته مرة أخرى، دون إظهار ما يدل على سماعه كلام علي، يصمت علي يائسًا، قبل أن ينفجر الآخر فجأة، ضاحكًا بهستيريا وهو يقول:

-بقولك إيه؟

- ماذا؟!

-حضّر لنا كوبين من الشاي، وأحضر الطاولة لأغلبك «عشرتين».

facebook.com/the.Boooks

- ما الذي ...؟

- هيا أسرع، لا تنس أنني غلبتك المرة الماضية.

ثم يستمر في الضحك الهستيري، للحد الذي يجعل علي يقرر الانسحاب من الغرفة مسرعًا ...شاعرًا بالاختناق، ودمعتان محبوستان تريدان الفرار من عينيه.

يخرج من الغرفة ليرى الأبوين ممتقعي الوجوه من منظر ابنهما وهو يضحك بتلك الطريقة ...بينما بدت على وجه الدكتور سامح معالم التفكير، مختلطة ببعض الحيرة.

- قال لي..

حاول الشرح، لكن الطبيب قاطعه بهدوئه المعهود:

- لقد سمعنا كل ما قاله لك.

ثم نظر إلى الأبوين مستفسرًا:

- طاولة؟

- تلك هي كلمات جدّه له رحمه الله.

قالتها الأم، ثم ترقرقت عيناها بالدموع، ونظرت في الأرض وهي تتابع:

- كانت لعبتهما المفضّلة، هو من علّمها له.

زادت الحيرة على وجه الطبيب وهو يقول:

facebook.com/the.Boooks

- لكن، إذا كان المقصود بالكلام هو الجدّ، فلماذا استخدم اسم علي في الحديث؟! ولماذا يُكرر الاسم بلا انقطاع، إذا كانت الصدمة ناتجة عن وفاة جده؟! ..ثم ...

يتوقف عن الكلام فجأة، قبل أن يلتفت إلى الأبوين قائلًا:

- ثم هل من المعقول أن يصاب بتلك الحالة الصعبة نتيجة حدث بسيط كوفاة جدّه؟! أعني أنه مهما كانت درجة حبّه لجده، فإن أقصى ما قد يمكن أن يصيبه هو انهيار نفسي، يستمر لفترة قصيرة، ثم يختفي تدريجيًا ...لكن هذا .. هذا الذي أمامنا صعب .. بل شبه مستحيل!

تلتفت الأم فجأة ناحية الأب، تلقي إليه نظرة أدرك معناها على الفور ..قبل أن يتنحنح هامسًا:

- لكن .. هذا صعب... ليس لهذه الدرجة!

- وما هو الصعب؟

يقولها الدكتور سامح مؤكدًا سماعه تلك الجملة الهامسة، فيلتفت إليه الأب قائلًا بحرج:

- حسنًا .. هو موضوع صعب قليلًا .. لكن ... هناك تلك الفتاة التي يحبها ابني والتي تقدم لخطبتها فرفضته... لكن لا أعتقد أنه ..

تتدخّل الأم مقاطعة كلمات زوجها:

facebook.com/the.Boooks

- لكن رفضها الزواج منه جاء في نفس اليوم الذى توفّي فيه جده، ربما قبلها بعدة ساعات فقط.

ضاقت عينا الطبيب، ونظر إلى الأبوين نظرة لوم، ثم ثال بضيق:

- ولماذا لم تخبراني بهذا من قبل؟!

- لم نعتقد أن ....

يتدخل علي في الحوار قائلًا:

- بل هو سبب رئيسي يا سيدتي على ما أعتقد ... هل نسيتِ ما حدث له بعد ذلك الموقف منذ سنتين، حين صرخت في وجهه، وقالت إنها لا تريد رؤيته مرة أخرى؟!

التفت الطبيب إلى علي قائلًا باهتمام:

- وماذا حدث وقتها يا بني؟

قال علي بحزم:

-أصابه اكتئاب حاد، استمرّ معه ما يقرب من الشهر.

اتسعت عينا الطبيب دهشة، وهو يقول:

- لهذه الدرجة؟!

ثم التفت غاضبًا إلى الأبوين المنكمشين على نفسيهما خجلًا وقال:

-أرأيتما كيف أغفلتما معلومة غاية في الأهمية ..هذا يفسّر العديد من الأمور.

facebook.com/the.Boooks

صدمتان متتاليتان! هذا يجعل الأمور منطقية قليلًا.

توقف عن الكلام ليسترد أنفاسه، ثم قال مصفقًا بيديه في حماس:

- رائع .. فلتتصلوا بها .. أحضروها إلى هنا بسرعة.

قالها والتفت عبر الزجاج الشفاف نحو الشاب المغيَّب، الجالس على فراشه، وقال بصوت متحمس:

- لا تقلق يا بني .. علاجك قادم في الطريق.

قال جدّي:

«أخطأ من مثّل الحب بالأنانية .. الحب هو حالة من الرحمة والتسامح مع الكون بأكمله، حالة من الانفتاح على الحياة، حالة من الترقب والحماس للمستحيل، تجعلك تخطط أحداث سنوات مقبلة من حياتك مع من تحب دون أي منطق ... حالة من الإيثار تجعلك تتمّنى أن يحمل جميع أبنائك ملامح من تحب!»

***

facebook.com/the.Boooks

أغلقت الأم هاتفها المحمول، وهي تقول لزوجها بدهشة:

- يبدو أن علاج ابنك قادم بأسرع مما تتوقع .. اتصلَت بنورهان اليوم لتسألها عن حال ابنك مستفسرة عما حدث له ... وعندما سألتها نورهان من أين علمت بهذا؟! ... أخبرتها أن زميلة ابنك أبلغتها بالخبر، قائلة إنه يهلوس!

ثم تابعت باستنكار:

- تقول على ابني أنا إنه يهلوس؟! كيف تجرؤ؟!

- اهدئي .. الموقف لا يحتمل ... وأين هي الآن؟

- في الطريق إلينا بصحبة نورهان ...عشر دقائق على الأكثر وتكون هنا.

بعد ربع ساعة وصلت الفتاتان .. كانت نورهان مرهقة الوجه، شاردة النظرة، بينما علا وجه الأخرى قلق وتوتر غريبين.

تحاشت الأم أن تسلّم عليها، وأشاحت بوجهها بعيدًا عنها.

كان يبدو أنها قد اقتنعت أن تلك الفتاة هي السبب في كل ما أصاب ابنها.. بينما تحرّك الطبيب مسرعًا لينفرد بالفتاة، ويفهمها الموقف الحالي.

يلمح الطبيب بطرف عينه نورهان تنفرد بأمها، هامسة لها بعدة كلمات.. ثم تريها ورقة كانت تحملها بيدها، فشحب وجه الأم بشدة لدى قراءة المكتوب بها.

- ما الأمر ... هل من جديد؟

facebook.com/the.Boooks

يقولها الطبيب بصوت حازم.

تنظر إليه الأم بعيون جاحظة ولا ترد.

يلتفت نحو نورهان، فتقول بصوت خافت، وهي تنظر بين قدميها:

-وجدت تلك الورقة على مكتبه صباح اليوم .. فتحتها فوجدت بها نتيجة امتحاناته بالسنة النهائية بكلية الطب، لقد رسب!

تبتلع الفتاة ريقها بصعوبة، قبل أن تستكمل بصوتها الخافت قائلة:

- وبالاستعلام من موظّفي الكلية، علمت أنه قد عرف هذه النتيجة في اليوم السابق ليوم الوفاة.

يرتد الطبيب للخلف خطوة بدهشة عارمة بينما يكسو قناع الذهول وجوه كل من الأب والأم والفتاة.

- لم يخبركم إذًا لكي لا تُرجئوا خطبته لحبيبته.

قالها الطبيب بصوت هامس، ثم تابع رافعًا ثلاثة أصابع من يده اليمنى:

- أرأيت! الآن تتضح الأمور، ثلاث حوادث متتالية، كل منها أشد إيلامًا من سابقتها، وفي غضون يومين فقط، أي نفس بشرية تحتمل هذا؟!

ثم حوّل عينيه إلى الزجاج الذي يظهر خلفه الشاب المستكين، غير عابئ بالدنيا كلها، قائلا بإشفاق:

- كان الله في عونك يا ولدي.

facebook.com/the.Boooks

***

facebook.com/the.Boooks

طرق خفيف لا ضرورة له على باب الغرفة، يعقبه فتحه، ودخول فتاة رقيقة في أوائل العشرينيات من عمرها.

تنظر بحذر نحو الشاب الجالس على الفراش مربعًا ساقيه، وسابحًا في ملكوته الخاص، تتحرّك ببطء نحو فراشه، تُدقّق النظر في وجهه الذاهل، ثم تنزلق دموعها على خديها ببطء.

تفتح حقيبتها، تُخرج منها منديلا ورقيًا، تجفف به دموعها، ثم تأخذ نفسًا عميقًا، حاولت به كبح جماح دموعها الراغبة في الهرب.

- أنا آسفة.

تنطلق منها الكلمات بصوت هامس، قبل أن يبدأ انحدار دموعها مرة أخرى:

- سامحني ... أعلم أني ظلمتك كثيرًا.

صمت تام من قبل الشاب ... لم يلتفت إليها حتى.

- أعلم أنك ربما تكرهني الآن لرفضي غير المبرر لك.

- ....

- صدقني منذ أن تركتني تلك الليلة، لم أنم، كاد الأرق وتأنيب الضمير يقتلاني.

تنهدتْ، جلستْ على طرف الفراش، مدّت كلتا يديها وأمسكت بوجهه وحرّكته لتُجبره على النظر إليها، دققت النظر في أعماق عينيه.

facebook.com/the.Boooks

تشعر للحظة بشبح الغضب يطوف بعينيه المحدقتين في الفرا غ، ثم لا يلبث أن يختفي تاركًا لعينيه ذهولهما وانعدام تركيزهما الأول.

تغلبها دموعها مرة أخرى، ويحتقن وجهها، قبل أن تطرأ على بالها فكرة ...

تقول بصوت حاولت قدر الإمكان جعله مرحا:

- لمَ هذا التجاهل يا ترى، هل نسيتني؟!

- ....

- حسنًا .. يبدو أنك نسيت اسمي ..ولكن ..هل نسيت اللقب الذي أطلقته عليَّ، أنا، سمو الأميرة، نسيت؟!

قالت كلمتها الأخيرة بيأس شديد.

تنتبه عينا الشاب بغتة، ويتحفّز جسده، ويبدو لوهلة وكأنه يراها فعلًا، تتحرك شفتاه ويقول بصوت خافت:

- سمو الأميرة؟! أميرتي؟!

تكاد تقفز من الفرحة، وتصيح بلهفة:

- أجل، أنا هي، هل أفقت، هل تذكّرت؟!

يستكمل كلامه كأنه لم يسمعها:

- قل لي يا علي ما أخبار تلك الأميرة مريم التي تحبها، هل قرأت عليها تلك القصيدة التي كتبتها لها؟!

facebook.com/the.Boooks

ثم بضحكة يقول:

- ألم تخبرني أنك تسمّيها سمو الأميرة؟

- لا .. لا.... ما دخل علي بالموضوع؟ استيقظ من غفلتك، أرجوك، أرجوك..أنا أحتاجك.

تصرخ الفتاة بهذه الكلمات بهستيريا، فيحدّق بها الشاب لحظة بذهول، قبل أن يقترب بوجهه منها ببطء.

وفجأة يصرخ بصوت زاعق:

- أنتِ كذابة.

يصرخ بها بعنف، قبل أن يمد يديه فجأة، يمسك برأسه بينما ترتسم معالم الألم والفزع العميق على وجهه!

يدفع حبيبته بيديه بعنف، ثم يبدأ في الصراخ الهستيري، وهو يتلوّى بالفراش ممسكًا برأسه، كمن تلتهم النار أخاديد مخه!

ينفتح الباب، ويندفع الطبيب والممرضة والأبوان ونورهان إلى الداخل.

تتحرّك الممرضة بسرعة لتمسك بكتفي الشاب، فيدفعها بعيدًا عنه، لتصطدم بعنف بمنضدة عليها بعض الأدوات، بينما يستمر جسد الشاب في الانتفاض، وكأنما حلّت عفاريت الدنيا كلها بجسده!

يعتصر رأسه بين يديه، وتجحظ عيناه وهو يصرخ بألم شديد، كالذي تكالب

facebook.com/the.Boooks

عليه قطيع من الذئاب لافتراسه، يهتز الفراش بعنف جرّاء تحركات الشاب المهتاجة.

تصرخ الأم والأخت باكيتان خوفًا على الشاب، بينما يحدّق الأب ذاهلا في المشهد القائم أمامه عاجزًا عن تفسيره، يقفز الطبيب وينقضّ على الشاب محوطًا إياه بذراعيه ليقيّده، بينما تهرع الممرضة بحقنة المهدئ لتدسّها في ذراعه.

لحظات ويهمد جسد الشاب المتصلّب، ويستكين تمامًا ... ينفلت ذراعاه ليرقدا بجواره بهدوء ... ويغمض عينيه مستسلمًا.

يلتفت الطبيب نحو الفتاة الراقدة على الأرض، تبكي بصمت، تبعثرت محتويات حقيبتها مع سقوطها من فوق الفراش، وقبل أن يبادر الطبيب بالسؤال، قالت الأم فجأة من وسط دموعها:

- حرام عليكِ.

يلتفت الجميع بدهشة إلى الأم التي استكملت صراخها قائلة:

- ضيعتِ ابني مني، حسبي الله ونعم الوكيل فيكِ!

لعنة الله على الحب وسنينه.. لا أعلم ما الذي جعله يهيم حبًا بفتاة متبلدة المشاعر مثلك، باردة، لا تحس بآلام الآخرين، لم تحسّى به وهو مكتئب بسبب ظلمك له، لم تحسّى به وهو ينحدر في دراسته بسببك!

facebook.com/the.Boooks

لماذا تفعلين هذا به؟!

لماذا؟

حرام عليكِ .. حرام عليكِ.

استمرت الأم بترديد تلك الكلمتين للحظات .. قبل أن تنفجر في البكاء مرة أخرى ... بينما حدّقت فيها الفتاة بذهول، ثم غطّت وجهها بكفيها ، وانفجرت في البكاء هي الأخرى.

وقف الأب والطبيب يراقبان المشهد بصمت حزين، قبل أن يقول الأب:

- فلنخرج من الغرفة .. لندعه يرتاح قليلًا.

ثم استدار للخروج، وهو يلقي على ابنه نظرة آسفة، بعينين تلمعان بالدموع.

دموع الفقدان.

***

facebook.com/the.Boooks

إن كنت تقيًّا...خلّصني...

من هذا السحر

من هذا الكفر

حبك كالكفّر...فطهّرني

من هذا الكفر

إن كنت قويًا ..أخرجني

من هذا اليمّ

فأنا لا أعرف فن العوم ...

نزار قباني

facebook.com/the.Boooks

- ماذا سنفعل الآن؟!

قالتها الأم بصوت طحنته كثرة الصراخ والدموع.

كانت تسند رأسها على كتف زوجها، بينما يجلسان على مقعدين متلاصقين من المقاعد المصفوفة على طول الحائط.

- لا تقلقي، لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمرًا، ثقي بالله يا عزيزتي.

قالها الأب بصوت هادئ، يغلفه الحزن والألم.

- ونعم بالله.

قالتها الأم بخفوت، ثم أغمضت عينيها مستسلمة لنداء النوم.

كانت محبوبة الفتى جالسة على مقعد من المقاعد المصفوفة على الحائط المقابل ... تذرف دموعها الغزيرة بصمت ... وبين الحين والآخر تجففها بمنديل ورقي .. وتشرد قليلًا كمن تفكّر .. ثم ينكمش وجهها مرة أخرى، وتبدأ فاصلا جديدا من البكاء الصامت.

بينما كانت نورهان تتحدث مع الطبيب الذي أنهى حديثه معها ثم اتجه مباشرة نحو الأبوين الغافيين.

تنحنح بحرج حين أصبح أمامهما مباشرة، فانتبها سريعًا من نومهما، محمري العيون، والتفتا إليه بتفاؤل، فقال:

facebook.com/the.Boooks

- أعتقد أنني قد توصلت لتفسير نهائي لما يحدث لابنكما.

أولًا لاحظنا جميعًا أنه يكرّر اسم علي بصفة مستمرة، ثانيًا عند مواجهته مع صديقه علي لم يتعرف عليه، وإنما ذكر اسمه رابطًا إياه بجملة اعتاد جدّه أن يقولها له هو بالذات، ثم أتبعها بذكر لعبتهما المفضلة، ألا وهي الطاولة، ثالثًا: عند مواجهته مع الفتاة التي يحبّها، لم يتعرف عليها أيضًا، وإن كان قد أبدى مستوى أعلى من التركيز والانتباه عند ذكرها للقب الذي كان يلقبها به.

ولكنه بدلا من أن يستمر في تجاوبه معها، ذكر اسم علي مرة أخرى، ثم استخدم اللقب لوصف فتاة أخرى اسمها مريم، وبسؤال علي نفسه، وجدت أن مريم هي زميلة ابنكما وصديقة حبيبته، وهي نفسها الفتاة التي أحبّها علي زمنًا.

ثم، هناك أمر آخر، عندما قال «هل أخبرتها بتلك القصيدة؟» تلك الجملة بالذات وقفت عندها فترة، قبل أن أعرف من ابنتكما أنه كان شاعرًا.

يتوقف عن الكلام لحظة ليسترد أنفاسه، قبل أن يقول بأسف:

- كنت أعتقد أنها هلوسة سمعية فقط، باعتبارها النوع الأكثر شيوعًا من أعراض هذا المرض، لكن اتضح أنها تركيبة معقدة من الهلوسة السمعية البصرية.

نظر إليه الأبوان بتساؤل، فقال:

facebook.com/the.Boooks

- بمعنى آخر، عقل ابنكما أعاد استخدام كل الأحداث والذكريات السابقة له ولأقرب الناس إلى قلبه، ثم قام بتحريفها لخلق عالم متكامل، يلوذ به كموقف دفاعي ضد المرض الذى أصابه.

ومن خلال أحاديث وردود أفعال ابنكما مع كل مواجهة له، أستطيع الجزم بأنه يتقمّص شخصية جدّه بحذافيرها في هذا العالم.

باختصار...

نظر عبر الزجاج إلى الشاب المسكين .. ثم أكمل بنبرة إشفاق:

-يمكنكم القول إنه هروب من الواقع المؤلم الحزين الذى صُدِم به إلى عالم.. ربما يراه عقله أفضل من وضعه الحالي.

كان كل الأبوين يحدق به في ذهول الآن، واضح أنهما لم يستوعبا الموقف بالكامل!

قبل أن يقول الأب بصوت مرتجف، وهو يلقي نظرة قلقة على الأم الذاهلة، التي فقدت النطق تمامًا:

- وهل من علاج لهذا يا دكتور؟

- واضح أن العلاج الاجتماعي بمواجهته مع أشخاص يحبهم ويعرفهم قد أبدى فشله حتى الآن، لذلك فإني ...

ثم نظر للأرض، قبل أن يلقي قنبلته الأخيرة قائلًا:

facebook.com/the.Boooks

- قد أضطر للجوء للعلاج الكيميائي، فإن فشل، سألجأ لإستخدام الجلسات الكهربائية.

تلا تلك الجملة صمت تام.

صمت ينبئ عن الصدمة.

facebook.com/the.Boooks

أنتفض من فراشي فجأة وأنا أغمغم:

«بسم الله الرحمن الرحيم ... أستغفر الله العظيم».

تلك الكوابيس التي أصبحت تأتيني في هذه السن!

أصوات بكاء مخيفة ... ومستشفيات، وأطباء، وآلام في الذراع اليسرى، هل هي أزمات قلبية خفيفة؟! لا أدري!

لا يهم ..على كل حال أنا لم أعد أهتم بصحتي .. ولم أعد أهتم بالحياة نفسها.. لا قيمة للحياة دونها، لا معنى ولا هدف!

لا أدري لم تلتقط أنفي دائمًا تلك الرائحة العطرة، بمجرد استيقاظي، هذا ريحان على ما أعتقد، غريب، مع أنه لا يوجد في منزلي منه، ومهما سألتهم عن مصدر الرائحة، أخبروني أنهم لا يشمون شيئًا!

صرخة مفاجئة تجعلني أعتدل في فراشي بسرعة، مرهفًا السمع، أصوات أقدام تجري بسرعة، مقتربة من غرفتي، قبل أن يفتح بابها بعنف، وصوت صراخ ابنتي يسبقها في الدخول إلى الغرفة.

تقف باكية عند مدخل الغرفة، تحاول أن تتكلّم فيخرج الصوت من فمها على هيئة عواء متقطّع، كم تبدو شديدة الشبه بعمّتها في تلك الملامح الباكية، أعتقد أنها نوبة أخرى من نوبات بكائها، بعد انفصالها عن زوجها، أسألها بهدوء

facebook.com/the.Boooks

محاولًا طمأنتها:

- مالك يا حبيبتي .. هل هي الكوابيس مرة أخرى؟!

أخيرًا وجد صوتها طريقًا للخروج:

- الحقني يا بابا .. علي يا بابا.. علي.

يتوتّر صوتي، وأنهض من فراشي قائلًا:

- ما له يا ابنتي .. ماذا حدث له؟

- مات!

***

facebook.com/the.Boooks

-03-

ينفتح باب الغرفة رقم سبعة، تخطو إلى الداخل فتاة رقيقة محمرّة العينين، على وجهها آثار بكاء، يلحق بها الدكتور سامح، تلتفت إلى الطبيب قائلة بصوت واهن:

- شكرًا لأنك سمحت لي بالدخول إليه مرة أخرى.

يقول بصوت قلق:

-لا داعي للشكر، هذا كله من أجل مصلحة هذا الشاب، وأنا ما زلت مقتنعًا بقدرتك على مساعدته، سأتركك معه بمفردكما، وسأراقب ردود أفعاله من خلال الزجاج بالخارج مع أبويه وأخته.

ثم سكت لثوانٍ قبل أن يقول:

- لكن .. هل أنتِ متأكدة مما قلته لي ... هل أنتِ متأكدة أنك تعرفين ما هو الحل؟! .. أنت لا تعلمين المجهود الذى بذلته من أجل أن أقنع أبويه بإعطائي الإذن لإدخالك إليه.

خفضت عينيها وقالت:

- أعتقد أني أعلم ....

ثم رفعت عينيها إليه، وقالت:

- ولكن أليس هذا أفضل من تعريضه لكيمياء أو كهرباء قد تدمّر عقله تمامًا؟

facebook.com/the.Boooks

- معك كل الحق في كلامك ... على بركة الله.

ثم خرج وأغلق الباب وراءه بحرص.

اقتربت من الفراش الذى يرقد عليه الشاب الغائب عن الوعي، نظرت حولها حتى وقعت عيناها على مقعد صغير، سحبته وجلست بجانب الفراش، قرب رأس الشاب.

تنظر إلى وجهه وجبهته اللامعة بالعرق، تقترب بوجهها منه شاعرة بتسارع ضربات قلبها، تمسك بيده ثم تبدأ الكلام قائلة:

- أعلم أنك لا تسمعني الآن، لكن يمكنك أن تقول إني أثق بالمعجزات، وبأن كل كلمة أقولها حتى إن لم تصل إلى عقلك فإنك ستستوعبها تمامًا، لأنها ستصل .... ستصل إلى هذا.

ثم وضعت يدها بحرارة على صدره، عند موضع القلب تماما، وضغطت عليه برفق.

- بداية أنا أعلم أنني ظلمتك تمامًا، وتسببت بإهانتك في هذا الموقف السخيف الذي حدث بعد الحفلة التي ألقيت فيها قصيدتك، لكن، هل حاولت أن تسأل نفسك ولو لمرة واحدة، لماذا بدر مني هذا التصرف؟ هل ظننت ولو للحظة أنني قد أكون محطّمة نفسيًا بسبب محاولات ذلك الفتى الحقير لتشويه سمعتي؟ أنت تعلم جيدًا أن موقفا مثل هذا كان كفيلًا بأن يجعل سيرتي على كل لسان،

facebook.com/the.Boooks

ونحن في مجتمع لا يحتمل العبث بمعاني الشرف والسمعة الحسنة، لذلك كان لا بدّ أن أفعل ما فعلت، كي أمحو ما يمكن محوه من ظنون الناس وشكوكهم، حتى إنني أجبرت نفسي على الموافقة على أول شاب تقدّم للزواج بي!

كانت أيامي الأولى معه أصعب أيام حياتي، لأنني كنت أعيش بذنب ظلمي لك، خاصة بعدما علمت أنك مصاب باكتئاب حاد بسبب ما حدث.

حتى لحظات الصفاء القليلة التي كانت تطفو على السطح أحيانًا في علاقتي بزوجي، كان يتعمد تدميرها، مستغلًا حجة أنني لا أنجب، وأرفض الوسائل الحديثة للإنجاب.

حتى بعد انفصالي عنه، ظلّت نفسيتي مدمّرة، مطلّقة وعاقر في الثالثة والعشرين من عمرها، يا فرحتي!

ثم ظهرتَ أنت مرة أخرى.

عند تلك اللحظة، بدأت دموعها بالانهمار مرة أخرى، لتسقط على ذراع الفتى وصدره وهي تكمل:

- ظهرت أنت مرة أخرى لتُجدّد كل الأحداث التي حاولت تناسيها، تجعلني أعيشها مرة أخرى، اعترافك علنًا بحبك المُعترَف به سراً منذ زمن بعيد، قدّمت لي تلك القصيدة التي كنت تكتبها لأجلي ... أجل.. رفضتك ... لكنك لم تدرِ أني ...

facebook.com/the.Boooks

ازداد فيضان دموعها، وتحشرج صوتها عند هذه الكلمة، مما أجبرها على التوقف عن الكلام، قبل أن ينفتح باب الغرفة، ويدخل الطبيب لينظر لها مؤنبًا.

تومئ برأسها في اعتذار صامت، ثم تخرج منديلها، وتجفف به دموعها، لتستكمل كلامها:

- لم تدرِ أني رفضت لأني لم أرد تعذيبك مع فتاة منهارة نفسيًا مثلي، رفضت لأني لم أرد لك أن تقضي عمرك كله سجينًا مع فتاة مثلي، فتاة لا فائدة منها في الحياة ... رفضت لأني ..

ثم مالت على أذنه هامسة بنعومة:

- لأني أحبّك.

عند تلك الكلمة ارتجف جسد الشاب ارتجافة خفيفة، وظهرت على وجهه ابتسامة شاحبة، لم تلبث أن تلاشت، وحلّ محلّها تعبير مبهم على الوجه، أعقبته صرخة مدوّية أطلقها الشاب، مما جعل الفتاة تتراجع بظهرها إلى ركن الغرفة، ملوّحة بيديها أمام وجهها بعصبية، كأنما تدرأ عن نفسها هجومًا، وهي تصرخ بإنهيار مفاجىء:

- لا .. لا .. ليس مجددًا .. أرجوك.

بدأ جسد الشاب مغمض العينين بالانتفاض بأعنف مما سبق، ثم بدأ يصرخ بكلمات متعثرة:

facebook.com/the.Boooks

- لا .. لا .. علي!

اندفع الطبيب مسرعًا نحو منضدة الأدوات الطبية، ليجهّز حقنة المهدئ مرة أخرى، بينما اندفع والدا الفتى وأخته داخل الغرفة للمرة الثانية، وصراخ الشاب يتواكب مع صراخ الفتاة المرعوبة وبكائها المحموم!.

- .. لا ... أرجوك .. لا تفعل هذا بي.

- مات .. لا تتركني يا علي.

يندفع الطبيب بحقنة المهدئ نحو الشاب المهتاج الغائب عن الوعي، يحاول تثبيته قبل غرس الحقنة بذراعه، فتتحرك ذراعا الشاب لتدفعا الطبيب بعيدًا، يصرخ صرخة أقوى وأعلى مما قبلها، ثم..تحدث المعجزة.

***

facebook.com/the.Boooks

أفيق لنفسي، بينما أنتفض جالسًا على الفراش، أشهق بعمق كمن يغرق، أصرخ قائلًا:

- علي... مات!

أصمت مستفهمًا عن معنى كلماتي! تلتقط أنفي كالعادة رائحة الريحان، هل هذا حلم آخر؟! يرتفع جفناي ببطء مخدر، محاولًا استيعاب ما يحدث حولي، غرفة بمستشفى ما، رجل بزي الأطباء يقترب مني متفحصًا حدقتي عيني.

أبي وأمي وأختي يقفون بوجوه شاحبة في مواجهة الفراش، يسألني الطبيب عن اسمي بصوت واضح، أخبره بصوت متوتر غير مستوعب لما يحدث حولي! يلتفت الطبيب بوجه متهلل نحو والدي وأختي، قائلًا بضع كلمات لم تلتقطها أذناي، تظهر علامات ارتياح على وجوههم، ويعود الدم اليها تدريجياً بعد كلمات الطبيب.

تنقض أمي عليّ محتضنة إياي ومقبّلة كل ما يصل إلى شفتيها من وجهي، يقول أبي بصوت حيوي:

- حمدًا لله علي سلامتك يا بني.

أنظر إليه مستغربًا كلماته، هل أصابني مكروه؟!

هل أصبت في حادث؟! لا أتذكر!

facebook.com/the.Boooks

ولماذا أرتدي هذا الزي الغريب؟!

ولماذا يحمل الطبيب في يده حقنة مفتوحة وممتلئة بسائل ما؟!

هل أنا مريض؟!

أحاول استيعاب ما يحدث حولي ببطء، أنظر متفحّصًا أرجاء الغرفة الغريبة خماسية الأركان .. ثم .. أراها!

ذلك الوجه المستدير الجميل .. تلك الملامح الدقيقة الرقيقة..

أنا أعرفها.

ترتطم بذهني تفاصيل كثيرة من مشاهد مختلفة ومواقف متعددة، تشعلني ألمًا، فأمسك برأسي متأوّهًا للحظة.

أنهض من فراشي بتثاقل، بعد أن أحلّ ذراعي أمي من حول رقبتي، أتحرّك ببطء أقرب للزحف، مقتربًا من هذه الفتاة المليحة، أدقّق النظر في وجهها، أجل.

أنا أعرفها ..

عيونها منتفخة تحمل آثار بكاء طويل، وجهها محتقن بالدماء، وعلى خديها خطان من الدموع الجافة، أقف في مواجهتها مباشرة، فتبتسم ابتسامة مرهقة، وهي تهمس بفرح حقيقي:

- أنا أحبك.

facebook.com/the.Boooks

أجل... انها هي ..

حتى وهى بذلك الشحوب .. حتى بصوتها المذبوح من كثرة البكاء.. حتى وهى بتلك الملامح الحزينة، فإني أراها كما رأيتها وسأراها دومًا... أميرة.

أمد يدي ببطء ... ألمس وجهها بحنان ... ثم أحوّطها بذراعي .. أضمّها إلى صدري بلهفة التائه في الصحارى لشربة ماء تنقذ روحه من الهلاك في ظلام اليأس .. وإلى روحي يتسرّب عبق مألوف ... عبق عشقته خلاياي ... عبق لا أدري منبعه .. أهو من مكمن روحها .. أم من عقد احتفظت به بقربها منذ أعطيتها إياه ... عقد أصبح جزءًا من جسدها فتشرّبت خلاياها بعطره، أو تشرب هو بعطرها.

عقد الريحان ...

تمت

facebook.com/the.Boooks